شرح

العقائد الإسلامية

للشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس

(١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ)

شرح

أ. د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

شرح

العقائد الإسلامية

للشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس

(١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ)

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشثري، سعد بن ناصر بن عبدالعزيز

شرح العقائد الإسلامية لابن باديس/سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري

الرياض ١٤٤١هـ

١٨٦ ص ١٧×٢٤؛

ردمك: ٢-٧٥-٨٢٣٣-٦٠٣-٩٧٨

١. العقيدة الإسلامية أ. العنوان

ديوى ٢٤٠ ١٤٤١/٥٧٤٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٥٧٤٣هـ

ردمك: ٢-٧٥-٨٢٣٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٩٦٦١١٤٩١٤٧٧٦ +

٩٦٦١١٤٩٦٨٩٩٤ +

فاكس: ٩٦٦١١٤٤٥٣٢٠٣ +

ır Kounouz Eshbelia

r Publishing & Distribution

ngdom of Saudia Arabia

). Box 27261 Riyadh 11417

Tel.: +96611 4914776

+96611 4968994

Fax.: +966114453203

E-mail: eshbelia@hotmail.com

: @k_eshbelia

: @k_eshbelia

: @k. eshbelia

جامعة المعرفة العالمية
Knowledge International University

شرح
العقائد الإسلامية

للشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس
(١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ)

شرح

أ.د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمُرسلين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ الله -جل وعلا- قد بعث محمدًا ﷺ بعقيدة صافية، مبدؤها تعلق القلب بالله -جل وعلا-، وينطلق من ذلك أن تكون العبادات له سبحانه؛ ولذا كانت بعثة الأنبياء عليهم السلام مُنحصرة أهدافها في الدعوة إلى جعل العبادة خالصة لله سبحانه وتعالى.

قال الله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

وكل نبيٍّ يقول لقومه: ﴿**اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [هود: ٥٠].

إذن؛ هذه هي المهمة الأساسية لبعثة الرسول، وهذه المهمة العظيمة، والهدف الكبير الذي من أجله خُلق الإنسان؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

إذن؛ الهدف من الإسلام ليس الانتصار في الدنيا، وإنما إقامة العبودية لله تبارك وتعالى.

إذا كان عمل الإنسان من أجل الانتصار في الدنيا، وليس لإقامة العبودية؛ فليس هذا جهادًا؛ وليس هذا من دين الله في شيء؛ ولذا لما جاء أبو سعيد يسأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل للمغنم، أي ذلك في سبيل الله؟ قال النبي ﷺ: **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا** -يعني: أن أمر الله هو الغالب على أمر مَن سواه-؛ **فهو في سبيل الله)**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فَمَن قاتل لتحقيق رغبات نفسه! فليس قتاله في سبيل الله.

ومن قاتل من أجل لقمة العيش! فليس في سبيل الله.

ومن قاتل ليكون الحكم للشعب! فهذا ليس قتاله في سبيل الله؛ لأن الحكم عبودية نعبد بها الله؛ ولذلك علينا أن نجعلها لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿**إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾ [الأنعام: ٥٧].

وحينئذٍ لابد من تعليق هذه القلوب بربِّ العزَّة والجلال على جهة العبودية؛ فنحن نرجو الله، ونخضع لله، ونطلب العلم في حقائق الأشياء من شريعة الله، ونخاف من رب العزة والجلال، ونستشعر مراقبة الله لنا؛ نفعل ذلك كله عبُودية لرَبِّ العزة والجلال.

وهذا هو أساس البعثة وهذا هو معنى **"لا إله إلا الله"**؛ أي: لا عبودية حقَّة إلا لله، ولا يُعبد أحدٌ بحق إلا الله، ولا أعبد ولا أتقرب بشيء من العبادات لغير الله، هذا معنى **"لا إله إلا الله"**؛ ولذلك لما دعا النبي ﷺ العرب إلى هذه الكلمة قالوا: ﴿**أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٥]. فمن دعانا إلى صرف شيء من العبادات لغير الله فهو مُخَالف لدعوة محمد ﷺ وهو مخالف لدعوة التوحيد **"لا إله إلا الله"**.

إذا تقرر هذا؛ فإن جميع أنبياء الله جاءوا بتوحيد العبادة لله، فهذا آدم عليه السلام نزل والتوحيد معه، «فإن أبانا آدم عليه السلام أنزله الله للأرض، وأنزل التوحيد معه، فكان عليه السلام يعبد الله سبحانه ولا يعبد أحدًا سواه، وبعد عشرة قرون دبَّ إليهم الشرك، وسبب ذلك أن العلماء كانوا يُذَكِّرُون الناس بالله ماتوا في زمان متقارب، فرغب الناس أن يتذكروا الله وأن يخافوا من الله فوضعوا صورهم أمامهم بحيث إنهم كلما رأوهم تذَكَّرُوا عبودية الله، وبعد مدة عبدت هذه الأصنام التي أقاموها

لعبودية الله، وهذا يدُلُّك على أن العبودية لابد أن نسلك بها الطريق الشرعي، أما ما نستحسنه بعقولنا ونظُن أنه عبودية لله أو وسيلة لعبودية الله فقد يكون خَطأً، وقد يؤدي إلى آثار عكسية، ولذلك بعد مُدة عُبِدَت هذه الأصنام التي أقاموها لعبودية الله.

فإنهم نصبوا هذه الأنصاب؛ وبعد مدة قالوا: ما نصبت إلا لتُعبد فأصبحوا يدعونها من دون الله، وأصبحوا يصلون ويسجدون لها من دون الله؛ فأرسل الله سبحانه نوحًا عليه السلام ليُعيد الناس إلى التوحيد، فدعاهم ألف سنة، إلى أن يُوحِّدُوا الله، وأن يتركوا هذه الأصنام: ﴿ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، وقد أضَلُّوا كثيرًا، ولم يستجب له -خلال ألف سنة إلا خمسين عامًا- إلا قليلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. مما يدلك على أن المعيار في الحق ليس هو كثرة الأتباع، ولكن المعيار موافقة الكتاب والسنة، وموافقة الدليل الصحيح؛ فإنه عليه السلام لم يؤمن معه إلا قليل؛ فدعا عليهم فأُغرقوا ونجا هو ومن معه في السفينة.

إذن؛ ما هو السبيل الشرعي لجعل الناس يتذكرون الله؟

السبيل هو إيجاد العلماء الذين يتعَلَّمون الشريعة ويُعَلِّمون الناس بعد ذلك، هذه هي الوسيلة الشرعية.

والشيطان حريص على الناس أن يُذلَّهم لغير الله، وأن يُعِيدَهُم إلى الشرك بإذلالهم، وبإعادتهم إلى الشرك؛ فإنه بعد مدة نُسِيَ التوحيد، وتوجه الناس إلى الشرك وعُبدت بعضُ المخلوقات، فأرسل الله إليهم الأنبياء تباعًا، وهذا من رحمة الله بالعباد؛ حيث جعل عقوبته لا تنزل بالعباد إلا بعد بعثة الرسل، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فجاء إبراهيم عليه السلام فدعا إلى التوحيد، فاستنكره قومه، وقالوا: كيف تريدنا أن نترك هذه الأصنام التي عبدها آباؤنا من قبل؟! ألا تخشى أن هذه الأصنام تُنزل بك العقوبة؟! فأراد أن يبين لهم ضَعفَ هذه الأصنام، وأنها لا تحمي نفسها فضلًا عن غيرها، وأراد أن يوضح لهم أن هذه الأصنام عاجزة عن أن تنزل العقوبة بأحد، فقام بتكسير هذه الأصنام، فعاد إليه قومه يسألونه، لماذا قمت بتكسير الأصنام، فأنكر عليه قومه ذلك، فبيَّن لهم حقيقة هذه الأصنام وهذه المعبودات من دون الله، بعد ذلك حاولوا إلقاءه في نار الدنيا، فقال الله سبحانه للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وهذا يَدُلُّك على أن المُوَحِّدَ الذي يُفرِدُ الله بالعبادة وإن جاءه شيء من النقص والبلاء في أول الأمر ولكن العاقبة ستكون له.

بعد ذلك جاء عمرو بن لُحَي وأعاد الأصنامَ إلى جزيرة العرب، واستحدث لهم أصنامًا جديدة فَعُبدت من دون الله مرة أخرى، فبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة، فقابلوه بالتكذيب، وما من وصف شنيع إلا وصفوا به النبي صلى الله عليه وسلم، واستهزءوا به بأنواع الاستهزاء، كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣٠-٣١].

وبعد ذلك ابتلى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ببعض البلوى؛ ليَختَبِرَهُ ويختبر من معه، وهكذا أهل الإيمان عندما يأتون بالتوحيد يختبرهم الله فالابتلاء سُنَّةٌ كونية ماضية، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فأعاد الله سبحانه على الخلق التوحيد ببعثة محمد ﷺ، وبمجرد أن تُوفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، والدول الكبرى في ذلك الزمان همت بالانقضاض على بقايا دين التوحيد، فكانت تلك الأزمة العظمى، وإذا قارنا حال الإسلام اليوم بحال الإسلام في وقت وفاة النبي ﷺ علمنا أننا اليوم بخير؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **(مَن أُصيبَ بمصيبة فليتذكر مصيبته بي)**(١).

فبعد وفاته مباشرة ارتدت العرب وهمت الدول الكبرى وقتها بالانقضاض على من تبقى على التوحيد، ولكن الله عز وجل أعاد التوحيد إلى الناس بأولئك الأئمة -صحابة رسول الله ﷺ-، وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق، ثم بعد ذلك كلمَّا استجد للناس زمان نجد من أهله من لا يعرف التوحيد، ونتج عن ذلك أن علماء الشريعة يبينون الحق ويوضحونه، ويدعون الخلق للتوحيد.

ومن فضل الله سبحانه أن أقام في كل زمان علماء يُعيدون الناس إلى التوحيد، ولذلك وجدنا في التابعين من نفى تلك البدع والخرافات، وفي مقدمة هؤلاء: الإمام مالك: الذي نفى به رب العزة والجلال كثيرًا من البدع؛ لذلك أثنى عليه النبي ﷺ في قوله: **(تكاد الإبل تُضرب لطلب العلم فلا تجد أحدا أعلم من عالم المدينة)**(٢). يعني: مالك بن أنس، في تفسير أكثر أهل العلم لهذا الحديث.

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٥٩٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، كما أخرجه الدارمي (٨٦) من حديث عطاء مرسلا، والدارمي (٨٥) من حديث مكحول مرسلا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٠)، والنسائي (٤٢٧٧)، وأحمد (٧٩٨٠)، والحميدي (١١٨١)، وابن حبان (٣٧٣٦)، والحاكم (١/ ٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم بعد ذلك جاءت مقالات تُنَافي العقيدة الصحيحة، أخذها الناس من مشرق ومغرب من دول الهند ومن دول اليونان؛ فأصبحوا ينفون صفات رب العزة والجلال، ويقولون: لو تعددت صفاته لكان متعددًا ليس بواحد، فنفوا صفات رب العزة والجلال وقالوا بأن الله لا يتصف بشيء: لا يسمع، لا يبصر، لا يتكلم، قالوا: خوفًا من أن نشبهه بالإنسان. ففروا من تشبيهه بالأحياء فوقعوا في تشبيهه بالجمادات، ولم يعلموا أن صفات رب العزة والجلال لا مقارنة بينها وبين صفات المخلوقات، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ثم تمكنوا من التغلغل بهذه العقائد إلى أصحاب الولاية في زمن بعض العباسيين، فأصبحوا يُجبرون الناس على هذه العقائد الفاسدة، ومن لا يوافقهم على هذا المعتقد عذبوه أشد التعذيب؛ حتى إن بعض العلماء أصبح يُدخل في كلامه تورية من أجل أن يُظن أنه يوافقهم على معتقداتهم الفاسدة ليَسلَمَ من أذاهم، ولكن الله قيض علماء ثبتوا وبقوا على عقيدة التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ووصفه بالصفات الحسنى والأسماء العُلْيَا، فأبقى الله ذكرهم إلى قيام الساعة، ورأس هؤلاء الإمام الصابر في المحنة أحمد بن حنبل، الذي جُلد أمام الخلق وسجن السنوات العديدة، ومُنِعَ من التدريس، وما زاده ذلك إلا ثباتًا على الحق؛ لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى.

ثم هكذا في كل زمان تأتي الشياطين فتؤز بعض العباد لتَصرِفَهُم عن العقيدة الصحيحة، وأعظَم ذلك ما يتعلق بصرف العبادات لغير الله سبحانه، وحينئذٍ جاء بعض الناس فجَعَلُوا الشرك هو التوحيد وقالوا بأن من سجد لغير الله من الأولياء والأنبياء فهو صاحب المقام الأعلى، ووصفوا من دعا إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة بالصفات المقيتة لينفر الخلق من الحق وأهله، وهذا شأن أهل الباطل.

والمقصود: أن الشرك انتشر في كثير من البلدان فأصبحت القبور تُعبَد من دون الله ﷻ، يُؤتى إلى القبر ويُقَال: يا فلان، أنقذني من النار، ويا فلان، قدِّر لي الأرزاق، ويا فلان، أعطني الولد، وما علموا أن المقبور عَبدٌ مثلهم، بل هو ميت لا يتمكن من تلبية حاجاته فضلاً عن حاجات غيره، مع أن النصوص الشرعية واضحة في أن الدعاء حق لله ﷻ، وأن باب الله مفتوح لدعاء الداعين، كما قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقال: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

وكما قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ١٨].

ومن فضل الله سبحانه أن أظهر في الأمة علماء يُعِيدُون الأمة إلى طريقتها السابقة؛ طريقة محمد ﷺ في إفراد العبادة لله وحده، وعدم صرف شيء من العبادات لغير الله سبحانه، ومن هؤلاء: العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، وهو من علماء الجزائر، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو: قد توفي قبل سبعين سنة؛ فإنه لما شاهد بعض أهل بلاده صرفوا العبادة لغير الله، واحتاجوا إلى من يعيدهم إلى الكتاب والسنة كتب هذا الكتاب العظيم «**العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**».

وقد اهتم العلماء بالعقيدة لأن من الخلل في العقيدة ما يؤدي إلى جعل الإنسان مُشركًا داخلاً في قول الله سبحانه: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨]. وحينئذٍ لابد من الحرص على التوحيد، وإعادة الأمة إلى

الطريقة النبوية في الاعتماد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في جعل الناس يَعبُدُون الله وحده سبحانه ولا يعبدون أحدًا سواه.

الشيخ عبد الحميد بن باديس: من علماء الأمة الذين نفع الله سبحانه بهم، وقد كان من الذين تولوا التدريس للطلاب في المساجد في قسنطينة، وبَذَل من وقته الشيء الكثير في هذا الباب، ففسر القرآن، وشرح الأحاديث النبوية في الصحيحين، وفي موطأ الإمام مالك، وكان يريد أن يُعيد الأمة إلى التوحيد الصحيح، ونفع الله سبحانه بدعوته تلك البلاد، فأعاد الناس إلى التوحيد الصافي، وكان له من الأثر العظيم ما جعلنا ندعو له : بأن يجزيه رب العزة والجلال عن الأمة خير الجزاء.

إذن؛ كان للشيخ مَجَالسُ تدريس، وكان ينتقل من مكان إلى آخر، وكان : من علماء السنة، وقد ألَّف هذا الكتاب الذي بين أيدينا : «**العَقَائِد الإِسلامِيَّة مِنَ الآيَاتِ القُرآنِيَّةِ وَالأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

* * * * *

افتتاح

الحَمدُ للهِ نَحمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيه وَنَستَغفِرُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَنَشهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَنَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعدُ:

فَإِنَّ أَصدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

الشرح:

ابتدأ المؤلف كتابه بحمد الله سبحانه فقال: "الحَمدُ للهِ"؛ والمراد بحمد الله: أن الله سبحانه متصف بالأوصاف الجميلة الجليلة على جهة يُثنى بها عليه سبحانه، فالحمد الكامل الذي لا يعتريه نقص ولا يمكن أن يُصَاحِبَهُ ذَم إنما يكون لله سبحانه؛ ولذلك فنحن نُثنِي عليه -جل وعلا-.

وقوله: **«نَستَعِينُهُ»**: أي: نطلب عونه؛ لأن من لا يعينه الله فهو خائر القوى، ولذلك مِن دُعائنا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]. أي: لا نطلب العون والمدد والقوة من أحد سواك.

«وَنَتُوبُ إِلَيه»: أي: نعود إلى الله تعالى بترك المعاصي والندم على فعلها، وبالتزام طريق الطاعة.

«مَن يَهدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلاَ هَادِيَ لَهُ»: الهداية بيد رب العزة والجلال، يهبها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء، ولذلك فنحن نطلب الهداية من الله، إذ من يهده الله فلا مضل له، وفي المقابل من لا يُمكنه الله من الاهتداء فإنه سيبقى على الضلال.

«**ونشهد**»: أي: نُقر ونعترف "أن لا إله إلا الله": وأن لا معبود بحقٍّ سواه، وأن عبادتنا كلها لله لا شريك له. ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

«**أَمَّا بَعدُ؛ فَإِنَّ أَصدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ**»: الحديث: المراد به الكلام الذي يُتكلم به؛ لأن الكلام يَحدُثُ بعد أن لم يكن.

والله سبحانه يتكلم متى شاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿**مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢].

«**وَخَيرَ الهَدْيِ**»: يعني: أن أفضل الطرق التي نسير عليها هو هدي النبي وطريقته ﷺ.

«**وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا**»: المحدثات: هي البدع في الدِّين.

«**وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ**»: البدعة: الطريقة المخترعة في الدِّين، فهي عبادة الله بعبادة لم يأتِ بها نبينا ﷺ.

* * * * *

قَوَاعِدُ الإِسلامِ

بَيَانُ قَوَاعِدُ الإِسلامِ الخَمسِ مِنَ الآيَاتِ القُرآنِيَةِ وَالأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(بُنِيَ الإِسلامُ عَلَى خَمسٍ: شَهَادَةِ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُــهُ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَومِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيتِ)**.

الشرح:

«بُنِيَ الإِسلامُ»: أي أن هذه الأمور الخمسة هي القواعد الأساسية في هذا الدين، وهي خمسة أمور بالحَصْر:

«أولها»: الشهادتان، شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

ومعنى: **«لا إله إلا الله»**: الإقرار بأن العبودية الحَقَّة لله وَحدَهُ.

وأما معنى: **«شهادة أن محمدًا عبده ورسوله»**، أننا نثبت للنبي ﷺ وَصْفَيْن:

الأول: العبودية: فهو ﷺ عبدٌ لله، بمعنى أننا لا ننسبُ له شيئًا من صفات رب العزة والجلال، ولا نصرف له شيئًا من العبادات.

والثاني: أنه رسول الله؛ أي: أن الله كلفه بتبليغ شرعه الذي ينزل به الوحي إلى الناس، مما يعني أننا نصدقه في خبره، ونطيعه في أمره، ونحبه محبة أعظم من محبتنا لأنفسنا؛ لأنه سبب الخير الواصل لنا، ولا نعبد الله إلا بما شرع.

«وثانيها»: إقام الصلاة.

«وثالثها»: إيتاء الزكاة.

«ورابعها»: صوم رمضان.

«وخامسها»: حج البيت.

ويوجد في الإسلام عبادات أخرى غير هذه العبادات ؛ ولكن هذه العبادات هي الواجبة على كل إنسان ، وفي نفس الوقت وجوبها وجوب عَينِيٌّ.

قد يقول قائل : أين الأمر بالمعروف؟ وأين الجهاد؟

فنقول : الأمر بالمعروف والجهاد هذه من فروض الكفايات ، ولذلك لم تُذْكَر في هذا الحديث ، بينما هذه الأركان الخمسة من فروض الأعيان ، التي يجب على كل واحد أن يقوم بها.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الكَلامُ عَلى القَاعِدَةِ الأُولى وَمَا يَتعَلّقُ بِهَا

النَّجَاةُ بِالإِسلَامِ:

١) لا نَجَاةَ لأَحَدٍ عِندَ اللهِ تَعَالَى إلاَّ بِالدُّخُولِ فِي الإِسلاَمِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

الشرح:

قوله: «لاَ نَجَاةَ لأَحَدٍ عِندَ اللهِ إلاَّ بِالدُّخُولِ فِي الإِسلامِ»:

ما هو الإسلام؟

الإسلام بمعنى أنك تُسلِّم نفسك لله، فتجعلها لله سبحانه، وبمقدار تسليمك نفسك لله يكون مقدار إسلامك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

إذن؛ الإسلام أن تسلِّم نفسك لله وحده، لا تُسلِّمها لرئيس دولة، ولا تسلمها من أجل المطامع الدنيوية والأموال، ولا تسلم نفسك من أجل قوة غاشم، ولا تسلم نفسك لهواك ورغباتك، وإنما تسلمها لله سبحانه.

وأول ذلك ما يتعلق بالعبادات؛ بأن تجعل عباداتك لله وحده ولا تصرفها لأحد سواه.

وقد أورد المؤلف الدليل على أن من لم يأتِ بالإسلام فهو هَالِكٌ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

- وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

فقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾: يعني: أن من يطلب ويرضى، ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: الذي يتضمن أن الطاعة لله والإذعان له والخضوع له، ﴿دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ أي:

ستكون أعماله هباءً، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]. لماذا قدَّم ﴿بَلِ ٱللَّهَ﴾ على ﴿فَٱعْبُدْ﴾ وهو مفعول به؟ قُدِّم للحَصْر، كأنه يقول: لا تعبد أحدًا سوى الله. ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾. أي: اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾. أي: طريق الطاعة، وهي طاعة الله سبحانه وأول ذلك: بالتوحيد، فكل طاعة تخالف وتقابل طاعة الله فإنها مردودة مهما ترتب عليها من عقوبة دنيوية.

إذا جاءنا إنسان وقال: هناك غرامة على من أطاع الله بهذه الطاعة الواجبة.

قلنا: أيهما تقدم: الدنيا أو طاعة الله؟ أيهما تقدم: محبتك للمال الذي ستدفعه في الغرامة أو محبة الطاعة؟ قال: سيؤخذ من مالي!. قلنا: الأرزاق عند رب العزة والجلال، وقد وعدك بأن من ترك شيئًا لله فإنه سيعوضه من عنده، وأنه من يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

إذا جاءنا من يُفتي ويقول: اترك طاعة الله الواجبة لأن هذا من باب المصالح ومن باب الضرورات، وبدأ يُمهد للناس معصية الله، حينئذٍ نقول له: هؤلاء الذين أصدروا هذه الأوامر أليس الله فوقهم؟ أليس الله هو المدبر لهم؟ فحينئذٍ هو سبحانه عالم بشأنهم قادر على عقوبتهم وقادر على كفهم عنك، وقد أمرنا أمرًا جازمًا بهذه الطاعة التي تقرر دليلها في الكتاب والسنة.

فإذا قال شخص: أنا لا أجد عملاً إلا إذا عَمِلتُ في مطاعم الخُمُور! قلنا: أين الطاعة لله؟ لماذا قدمت طاعة نفسك ورغبتك في أن يكون عندك مال على طاعة رب العزة والجلال؟

الإسلامُ دينُ الله:

٢) الإسلامُ هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَرسَلَ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

الشرح:

فسَّر المؤلف الإسلام بأنه دين الله الذي أرسل به جميع رسله؛ لأن الإسلام خضوع لله، وتقديم طاعة الله على ما سواه، وهذه المعاني قد اشترك في الدعوة إليها جميع الأنبياء.

الإسلام: أن تعبُدَ الله وحده ﷻ وألاَّ تقدم العبودية لأحد سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. أي: الطاعة المقبولة عند الله هي دين الإسلام.

ودين الإسلام يشتمل على جُزئيتين:

الأولى: أن تقصد الله بعباداتك، وهذا هو التوحيد.

والثانية: أن تكون **(عبادتك)** على وفق ما جاء به أنبياء الله، وهذه هي المتابعة.

لَّما ادعى بعضهم كون إبراهيم عليه السلام منهم، نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. إذن إبراهيم من المسلمين، واسم الإسلام ليس خاصًّا بالشريعة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، فإن قوله: ﴿بِهَا﴾؛ يعني: التوراة، والأنبياء الذين مع موسى كانوا مسلمين.

ولقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾. أي: رغباتهم غير المبنية على دليل ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أعطونا الدليل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

واسمُ الإسلام يُطلق ويُراد به أحد معنيين:

المعنى الأول: إفراد الله بالعبادة، وهذا الاسم اشترك فيه جميع الأنبياء.

والثاني: إطلاق الإسلام على الشرائع التي جاء بها محمد ﷺ، ولذلك قال: «وما جاء به محمد ﷺ هو الإسلام الذي لا نجاة لأحد إلا بالدخول فيه».

* * * * *

مُحَمَّدٌ جَاءَ بِالإِسلامِ:

٣) وَمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ص هُوَ الإِسلاَمُ الَّذِي لاَ نَجَاةَ لأَحَدٍ إلاَّ بِالدُّخُولِ فِيهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

الشرح:

لَّما بُعث محمد ﷺ نُسخت الشرائع السابقة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[الأحزاب: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. أي أنه نسخ الشرائع السابقة.

ثم أورد المصنف قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾: المراد بالصلاة: هذه الصلاة المعروفة، ويدخل فيها الواجب والنفل. ﴿وَنُسُكِى﴾: قيل: المراد به: الذبح، وقيل: المراد به: جميع العبادات. ﴿وَمَحْيَاىَ﴾؛ أي: جميع حياتي لله، أي اجعلها عبادة لله تعالى، وأنتم تتمكنون من جعل حياتكم كلها لله؛ بأن تقصدوا بها التقرب لله جل جلاله.

فإذا قيل: كيف أنوي التقرب لله سبحانه؟ قلنا: بمعرفة حكم الله في كل فعل قبل أن تُقدم عليه.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ [آل عمران: ٢٠]. لما أورد الله سبحانه في الآية السابقة شهادة التوحيد قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾أي ناقشوك في إفراد الله بالعبادة، ﴿فَقُلْ﴾ أنا ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ عبادتي كلها لله وهكذا ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ فكل من اتبع النبي ﷺ فعبادته لله.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: الأميون: الذين لا يُحسِنُون القراءة والكتابة وهم العرب، ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: هل دخلتهم في طاعة الله، أي: لم يجعلوا عباداتهم خالصة لله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾. **إذن؛** وظيفتنا هي البيان والبلاغ، والله سبحانه سيُحَاسب العباد إذ إنه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

* * * * *

الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ هُوَ الأَسَاسُ:

٤) لاَ يَدخُلُ أَحَدٌ الإِسلاَمَ إِلاَّ بِالإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلا نَصرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِن أَصحَابِ النَّارِ)** رَوَاهُ مُسلِمٌ عَن أَبِي هُرَيرَةَ[1].

الشرح:

لا يدخل أحد في الإسلام إلا بالإيمان بمحمد ﷺ نبيا مرسلا من عند الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

فإن قال قائل: وموسى وعيسى من أنبياء الله، لهم علينا حق التقديم؛ لكونهم أقدم من محمد ﷺ، و شريعتهم شريعة صحيحة، فلماذا لا نقول بأنّ أتباع موسى وعيسى على الحق، وأنهم من المسلمين مع أن الأنبياء يوصفون بالإسلام؟

فنقول:

أولاً: شريعتهم حُرِّفت ووقع التحريف في كتبهم، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

وثانيًا: لما بعث الله ﷻ محمدًا ﷺ جعل شريعته ناسخة للشرائع السابقة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فإن قال قائل: هذا النبي أرسل للعرب خاصة؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؟

نقول: هناك آيات قرآنية كثيرة تدل على عموم رسالته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، هذه الآية فإنها أمرته بنذارة عشيرته، لكن لم تَنْهَهُ عن نذارة غيرها -نذارة غير عشيرته- وهناك آيات قرآنية صريحة في القرآن أمرت النبي ﷺ أن يبلغ رسالته لكل من كان في عهده حتى من اليهود والنصارى، ولذلك كتب النبي ﷺ إلى ملوك زمانه للدخول في الإسلام، ومن هؤلاء: قيصر وهو من النصارى، والمقوقس وهو من النصارى، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ومعنى الناس ليس مقتصرا على العرب؛ بل الناس هم: جميع الأمم من بني آدم مهما اختلفت بلدانهم، ومهما اختلفت أجناسهم، ومهما اختلفت لغاتهم، ومهما اختلفت ألوانهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾:

﴿قُلْ﴾ يُقصد به النبي ﷺ، فالآية أثبتت أن محمداً ﷺ، رسول مَن الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فجميع الكائنات الحية يحييها الله ويميتها الله، وقد عجز الناس إلى يومنا هذا عن معرفة كنه الحياة، وهو سبحانه يملك السماوات والأرض، ويتصرف فيها بما يشاء، مما يدل على وجوب إفراده بالعبادة، ووجوب تصديقه وتصديق رسله.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾. أي: الذي لا يُحسن القراءة والكتابة.

هل هذا وصف مَحمُود؟

نقول: القراءة والكتابة وسيلة لمعرفة العلوم، فإذا عرف الإنسان العلوم بدون الوسيلة أو بوسيلة أخرى فحينئذٍ يكون قد حصَّل المقصود.

وعلى العموم فإن هذا الوصف ليس وصفًا مذمومًا في حق النبي ﷺ؛ لأنه لَمَّا وصله الوحي تمكن من معرفة الحق ولو كان أُميًّا.

وفيه ثمرة أخرى: وهو ألاَّ يُتهم الإسلام أو يُتهم محمد ﷺ بأنه قد أخذ هذا الدين من الأمم السابقة، بقراءة كتبهم.

ثم قال: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾. أي: سيروا على طريقته ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال النبي ﷺ: **(وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ)**؛ يعني: أمة الدعوة لا أمة الإجابة فقط؛ بما يشمل جميع أهل الأديان، ولذا فسرها بقوله: **(يَهُودِيٌّ وَلا نَصرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِن أَصحَابِ النَّار)**.

إذن، هذا كلام صريح في أن جميع أهل الأديان يُخاطبون بهذا الدين، ويخاطبون بوجوب اتباع هذا النبي ﷺ.

* * * * *

الشَّهَادَةُ هِيَ المفتاحُ:

٥) الدُّخُولُ فِي الإِسلاَمِ وَالإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ يَكُونُ بِشَهَادَةِ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، لِقَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ لَمَّا بَعَثَهُ لِليَمَنِ: **(إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أَهلِ الكِتَابِ.. فَادعُهُم إِلَىَ شَهَادَتَي أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهَ وَأَنِّي رَسُولُ الله فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ.. فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيهِم خَمسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يومٍ وَلَيلَةٍ .. فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ.. فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيهِم صَدَقَةً تُؤخَذُ مِن أَغنِيَائِهِم فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم، فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ.. فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَموَالِهِم وَاتَّقِ دَعوَةَ المَظلُومِ فَإِنَّهَا لَيسَ بَينَهَا وَبَينَ اللهِ حِجَابٌ)** رَوَاهُ مُسلِم[(١)].

الشرح:

إذا أراد الإنسان أن يدخل في دين الإسلام، كيف يفعل؟

نقول له: اشهد الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ويدل على ذلك أنه لمّا بعث النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل إلى اليمن قال: **(إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أَهلِ الكِتَابِ فَادعُهُم إِلَىَ أن يوحدوا الله)**[(٢)]. وفي رواية: **(إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)**[(٣)].

قال: **(فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ؛ فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيهِم خَمسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ)**. إذن لا ندعو الناس إلى الصلوات إلا إذا آمنوا بأصل دين الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، مسلم (١٩) من حديث ابن عباس عن معاذ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٥).

قال : **(فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ)**. فحينئذٍ تنتقل إلى الزكاة ؛ لأنها الركن الثالث.

قال : **(فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ ؛ فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيهِم صَدَقَةً تُؤخَذُ مِن أَغنِيَائِهِم فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم ، فَإِن هُم أَطَاعُوا لِذَلِكَ)**. يعني : استجابوا لدفع الزكاة **(فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَموَالِهِم)** ؛ فإن الساعي عندما يريد أخذ الزكاة ، في الإبل مثلا ؛ فإنه يأخذ من الإبل المتوسط ، ولو أخذ من أحسن الإبل وأجودها لكان ظالمًا. ولذا قال النبي ﷺ : **(فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَموَالِهِم ، وَاتَّقِ دَعوَةَ المَظلُومِ فَإِنَّهَا لَيسَ بَينَهَا وَبَينَ اللهِ حِجَابٌ)**.

إذن ، إذا أَردتَ الدخول في الإسلام فأعلن إقرارك بالشهادتين ؛ ولا بد من العلم بمعناهما ، والتصديق بهما ، والإذعان لهما وترك منافيهما.

* * * * *

أَوَّلُ الوَاجِبَاتِ:

٦) أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى المُكَلَّفِ مِن مُسلِمٍ بَلَغَ، أَو كَافِرٍ يُرِيدُ الدُّخُولَ فِي الإِسلَامِ: أَن يَعلَمَ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ لِحَدِيثِ مُعَاذٍ المُتَقَدِّمِ، وَلِحَدِيثِ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ: لَمَّا حَضَرَت أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِندَهُ أَبَا جَهلٍ وَعَبدَ اللهِ بنَ أَبِي أُمَيَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(يَا عَمِّ، قُل لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أَشهَدُ لَكَ بِهَا عِندَ اللهِ)**، فَقَالَ أَبُو جَهلٍ، وَعَبدُ اللهِ بنُ أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟! فَلَم يَزَل رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعرِضُهَا عَلَيهِ، وَيُعِيدَانِ عَلَيهِ تِلكَ المَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُم: (هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَن يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)[(١)]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشهَدُوا أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيُؤمِنُوا بِي وَبِمَا جِئتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَموَالَهُم إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُم عَلَى اللهِ)**[(٢)].

الفَهمُ شَرطٌ:

٧) لاَ يَكفِي النُّطقُ بِكَلِمَتَي الشَّهَادَةِ إِذَا كَانَ النَّاطِقُ بِهِمَا لاَ يَفهَمُ أَصلَ مَعنَاهُمَا، لِقَولِهِ ﷺ فِي الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ: **(أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشهَدُوا أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيُؤمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئتُ بِهِ)**.

الشرح:

ما هو أول واجب على كل إنسان؟

أول واجب: هو الإقرار بالشهادتين، ولذلك كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإقرار بالشهادتين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب.

(٢) أخرجه مسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأصل الحديث عند البخاري (١٣٩٩).

قال ربيعة بن عباد الديلي: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: **(يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)**(١).

بعض الناس يقول: أول واجب عليَّ هو التفكير في الكون.

نقول: هذا خطأ؛ لأن التفكير وسيلة، والغاية هي الإقرار بالألوهية لله وحده، والإقرار بالرسالة لمحمد ﷺ، والوسيلة ليست أمرًا متحتمًا؛ لأنني يمكن أن أُقر بالشهادتين بوسائل أخرى، إما بطريق التقليد أو بمشاهدتي لشيء من المعجزات أو نحو ذلك.

وكان مما استدل به المؤلف أنه لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، وهو عم النبي ﷺ كان يذود عنه ويُحامي عنه، ويَكُف أذى قريش عنه-، فلمَّا جاءت الوفاةُ أبا طالب جاءه النبي ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال رسول الله ﷺ: **(يا عم** -يعني: يا أبا طالب- **قل: لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله)**.

فقال له: قل: لا إله إلا الله، ولم يقل له: انظر في الكون؟ ولم يقل له: شك في إلهك؟ لا؛ بل قال له: **(قل: لا إله إلا الله)**. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة أبيك عبد المطلب؟ وعبد المطلب كان يَعبُد الأصنام، فقالوا لأبي طالب: أتعرض عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يكرر الدعوة إلى الإقرار بشهادة التوحيد **(لا إله إلا الله)** وهما يعيدان عليه تلك المقالة: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ حتى قال أبو طالب آخر ما قال، آخر ما

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٢٣).

كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: (لا إله إلا الله)؛ فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. فالنبي ﷺ دعاه إلى شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يدعه إلى نظر ولا إلى غيره.

وفي الحديث: **(أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشهَدُوا أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيُؤمِنُوا بِي وَبِمَا جِئتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَموَالَهُم إِلاَّ بِحَقِّهَا)**.

فإذا جاءنا شخص لا يعرف العربية -فرنسي مثلاً-، وقلنا له: قل: لا إله إلا الله. فقال: لا إله إلا الله، هل يكون بذلك قد دخل في الإسلام؟

نقول: مجرد النطق بها لا يكفي؛ بل لابد لها من شروط، أول تلك الشروط: أن يكون عارفًا بمعناها، فيقول: لا يعرف معناها لأنه لا يعرف العربية، فنقول: لا إله إلا الله، لا يكفي النطق بها، حتى يعرف معناها بأي لغة، وبالتالي ليست دينًا ولا إسلامًا، ولم يدخل في دين الله.

كذلك لابد أن يجزم بمعناها؛ إذ لو كان شاكًّا أو مترددًا فإنه لا يكفيه.

كذلك لابد ألا يكون عنده شيء من الأمور المنافية لها.

فمن كان يقول: لا إله إلا الله، ويعرف معناها ويتيقنه، لكنه يسجد للصنم، ويدعو الولي من دون الله، فنقول حينئذٍ: لا إله إلا الله لا تنفعه.

ولو قُدِّر أن إنسانًا أراد الدخول في دين الإسلام، هل لابد أن يتلفظ بـ**(لا إله إلا الله)**، أو أن أي لفظ يدل على معناها يكفي، فلو جاءنا وقال: أُقر أن المعبود الحق هو الله. قلنا: يكفي. وكذلك لو قال: أعترف بأنه لا يُعبد أحد بحق إلا الله. قلنا: يكفي هذا اللفظ.

* * * * *

كِفَايَةُ المَعنى:

٨) وَيَكفِي لِلدُّخُول فِي الإسلاَم مَا دَلَّ عَلَى مَعنَاهُمَا، لِحَدِيثِ بَنِي جُذَيمَةَ قَالَ عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ: (بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُم إِلَى الإِسلاَمِ فَلَم يُحسِنُوا أَن يَقُولُوا: أَسلَمنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأنَا صَبَأنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقتُلُ مِنهُم وَيَأسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَقُلتُ: وَاللهِ لا أَقتُلُ أَسِيرِي، وَلا يَقتُلُ أَحَدٌ مِن أَصحَابِي أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرنَاهُ لَهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبرَأُ إِلَيكَ مِمَّا صَنَعَ**) خَالِدٌ مَرَّتَينِ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ[(١)].

ضَرُورَةُ التَّصدِيقِ وَالاعتِقَادِ:

٩) وَلاَ يَكفِي النُّطقُ بِالشَّهَادَتَين وَفَهمُ مَعنَاهُمَا إِلاَّ مَعَ التَّصدِيقِ التَّامِّ وَالاِعتِقَادِ الجَازِمِ بِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وَلِقَولِه تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

الشرح:

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد -الصحابي المعروف- إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ -قبيلة من العرب- فَدَعَاهُم إِلَى الإِسلاَمِ، فاستجابوا، ولكنهم لم يقولوا: أسلمنا، بل قالوا: صبأنا. وصبأ بمعنى: خرج من دين ودخل في دين آخر؛ فحينئذٍ هم أرادوا شيئًا وهو: أسلمنا، وهذا يُدخلهم في الدين، فقالوا: صبأنا. فَجعل خَالد يَقتل مِنهم وَيأسر، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ أَسيره، فقال بعضهم: واللهِ لا أَقتل أسيري، وبدءوا يتضامون فيما بينهم ويتواصون ألاَّ يُقتَل هؤلاء الأسرى؛ لأنهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٩) و (٧١٨٩)، والنسائي (٥٤٠٥)، وأحمد (٦٣٨٢)، وابن حبان (٤٧٤٩).

قد أقروا بالدين، وقالوا: صبأنا، فأُخبر النبي ﷺ بشأنهم فقال: **(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد)**.

إذن، ليس المراد لفظ الشهادتين إنما الُمرَاد المعنى، ولابد من العلم بمعناها وكذلك لابد من الجَزم والتصديق بها؛ لقوله تعالى: **﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾** [محمد: ١٩]. ما معنى (اعلم)؟ أي: اجزم وأيقن وصدِّق واقطع بهذه الكلمة **(لا إله إلا الله)**.

والمنافقون في عهد النبي ﷺ كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ويقولون: محمد رسول الله، ويصلون الصلوات مع المسلمين، ويذكرون الله، ولكنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، ومع ذلك حكم الله عليهم بقوله: **﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾** [النساء: ١٤٥].

وقال تعالى: **﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾**، فما نفعتهم هذه الشهادة؛ لأنهم لم يصدِّقوا بها تصديقًا جازمًا؛ لذلك قال: **﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾** [المنافقون: ١]، أي: كاذبون في قولهم: **﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾**.

والسؤال الذي يطرح: ما هي الطريقة لتحصيل **(لا إله إلا الله)**؟ وما السبيل الذي يتوصل به المكلف إلى اليقين بمعنى **(لا إله إلا الله)**؟

فنقول: لا تنحصر الوسيلة والطريقة في النظر ولا في الشكِّ؛ وإنما المراد اليقين بهذا المعنى، وبأي دليل استطعنا الوصول به إليها؛ فإنه يكفينا، وهناك طرق توصلنا إلى هذه الشهادة، منها تصديق النبي ﷺ، ومنها رؤية القرائن والأحوال، ومنها رؤية نصر الله للمؤمنين، ومنها الاقتناع الكامل بها، ومنها ما لو قلَّد الإنسان غيره في هذه الشهادة فإنها تصح منه على الصحيح.

كِفَايَةُ اليَقِينِ بِإِخبَارِ الرَّسُولِ:

١٠) مَن حَصَلَ لَهُ اليَقِينُ بِإِخبَارِ الرَّسُولِ ﷺ كَفَاهُ ذَلِكَ اليَقِينُ، لِحَدِيثِ ضِمَامِ بنِ ثَعلَبَةَ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: (بَينَمَا نَحنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسجِدِ، إذ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي المَسجِدِ، ثمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُم: أَيُّكُم مُحَمَّدٌ؟ قُلنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبيَضُ المُتَّكِئُ. فَقَالَ: ابنَ عَبدِ المُطَّلِبِ فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(قَد أَجَبتُ)**. فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيكَ فِي المَسأَلَةِ، فَلاَ تَجِد عَلَيَّ فِي نَفسِكَ. فَقَالَ: **(سَل عَمَّا بَدَا لَكَ)**. فَقَالَ: أَسأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَن قَبلَكَ، آللهُ أَرسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِم؟ فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. قَالَ: أَنشُدُكَ بِاللهِ تَعَالَى آللهُ أَمَرَكَ أَن تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمسَ فِي اليَومِ وَاللَّيلَةِ؟ قَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. قَالَ: أَنشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَن تَصُومَ هَذَا الشَّهرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. قَالَ: أَنشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَن تَأخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِن أَغنِيَائِنَا فَتَقسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنتُ بِمَا جِئتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَن وَرَائِي مِن قَومِي، وَأَنَا ضِمَامُ بنُ ثَعلَبَةَ، أَخُو بَنِي سَعدِ بنِ بَكرٍ). رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ وَغَيرُهُمَا[1].

وُجُوبُ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللهِ:

١١) يَجِبُ عَلَى المُؤمِنِ مَعَ تَصدِيقِهِ وَجَزمِهِ أَن يَنظُرَ فِي آيَاتِ اللهِ، وَيَستَعمِلَ عَقلَهُ لِلفَهمِ كَمَا تَجِبُ عَلَيهِ جَمِيعُ الوَاجِبَاتِ فِي الإِسلَامِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢)، وأبو داود (٤٨٦)، والترمذي (٦١٩)، والنسائي (٤٥٩)، وابن ماجه (١٤٠٢)، وأحمد (١٢٤٥٧).

طَرِيقَةُ النَّظَرِ:

١٢) النَّظَرُ الوَاجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ هُوَ: النَّظَرُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا القُرآنُ، كَمَا فِي الآيَاتِ المُتَقَدِّمَةِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

إِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ:

١٣) مَن عَرَضَت لَهُ شُبهَةٌ وَجَبَ عَلَيهِ أَن يُبَادِرَ إِلَى إِزَالَتِهَا بِالنَّظَرِ بِنَفسِهِ، أَو بِسُؤَالِ غَيرِهِ مِن أَهلِ العِلمِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٣]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

الاستِعَاذَةُ مِنَ الخَطَرَاتِ:

١٤) مَن وَرَدَت عَلَى قَلبِه خَطَرَاتٌ مِن دُونِ شُبهَةٍ فَلْيَستَعِذ بِاللهِ وَلْيَقُل: آمَنتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(يَأتِي الشَّيطَانُ أَحَدَكُم فَيَقُولُ: مَن خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَستَعِذ بِاللهِ وَلْيَنتَهِ)**[1]، وَمِن طَرِيقٍ آخَرَ: **(فَلْيَقُل: آمَنتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ)**[2].

الشرح:

قال أنس: (دَخَلَ رَجُلٌ المسجد، فقال: أَيُّكُم مُحَمَّدٌ؟ قالوا: هَذَا الأَبيَضُ المُتَّكِئ. فتوجه إليه، قَالَ: ابنَ عَبدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(قد أَجبتُ)**.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥)، وأبوداود (٤٧٢١)، وأحمد (٨٣٧٦)، من حديث أبي هريرة ﵁.

فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيكَ فِي المَسأَلَة. -عندي أسئلة قوية شديدة- فلا يبقى في نفسك مني شيء لأني طالب للحق، قال النبي ﷺ: **(سَل عَمَّا بَدَا لَكَ)**. فَقَالَ: أَسأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَن قَبلَكَ، آللهُ أَرسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِم؟ فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. قَالَ: أَنشُدُكَ بِاللهِ تَعَالَى آللهُ أَمَرَكَ أَن تُصَلِّيَ الصَّلَواتِ الخَمسَ فِي اليَومِ وَاللَّيلَةِ؟ قَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. قَالَ: أَنشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَن تَصُومَ هَذَا الشَّهرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. قَالَ: أَنشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَن تَأخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِن أَغنِيَائِنَا فَتَقسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ نَعَم)**. فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنتُ بِمَا جِئتَ بِهِ)، فاكتفى النبي ﷺ بقوله ولم يطالبه بدليل، ولم يقل له هل عندك نظر؟ ولم يقل له النبي ﷺ: إيمانك هذا ليس بصحيح؛ لأنه لم يكن بتقليب النظر والفكر، وإنما اقتنعت بكلامي مجردًا وأردت تقليدي؟

كل هذا لم يَقُلْهُ ﷺ، فدل هذا على أن ما يذكرونه من توقف الإيمان على النظر في الكون، وعلى الاستدلال على أصل الدين كلام لا يصح؛ لأن صحة الإقرار بشهادة التوحيد لا تنحصر في هذا النظر.

بل قال الرجل: (آمَنتُ بِمَا جِئتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَن وَرَائِي مِن قَومِي، وَأَنَا ضِمَامُ بنُ ثَعلَبَةَ، أَخُو بَنِي سَعدِ بنِ بَكرٍ). فصَحَّحَ النبيُّ ﷺ إسلامه.

ولكن السؤال: هل النظر مطلوب؟

فنقول: النظر أنواع، وأعظم نظر هو النظر في القرآن؛ لأن القرآن مُقنع؛ فإن القرآن فيه من الحجج التي تُذعِنُ لها النفوس؛ ولذلك أمرنا الله سبحانه بإسماع الكافرين آيات القرآن؛ لكن المشكلة أن أكثر من ينتسب للإسلام يكون سماعهم للقرآن قليلا، فكيف نطلب منه أن يُسمع الآخرين القرآن؟! أعظم داعية إلى دين الله هو هذا القرآن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]،

وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ولذلك كانت تُقرأ الآية على الواحد من العرب فيتأثر بها كأنه قد لُطم وجهه؛ لأنه يعرف من المعاني الشيء الكبير، وفي القرآن حجج عقلية تذعن لها النفوس.

وجبير بن مطعم صحابي، كان قبل الإسلام مع أهل مكة يقاتل النبي ﷺ، فأُسر في غزوة بدر، فجاء النبي ﷺ بالأسرى فوضعهم في المسجد؛ ليسمعوا آيات القرآن. قال: قرأ النبي ﷺ مرة في صلاة المغرب بالطور، قال جبير: (فلما قرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. كاد قلبي أن يطير)[١].

لماذا؟ لأنه حُجَّةٌ عظيمة.

انظر إلى أواخر سورة يس في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فهذه شبهة يتبناها من يجحد الحساب الأخروي، فجاء الجواب: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨]، فمن استطاع أن يخلق الإنسان أول مرة؛ فإنه قادر على خلقه مرة أخرى.

ثم أورد الله سبحانه حُجَجًا أخرى: الأرض اليابسة الميتة يأتيها المطر فتنبت، أنبتها الله وأحياها بعد موتها، فمن أحيا الأرض أليس بقادر على بعثك مرة أخرى؟ إلى آخر ذلك من الآيات.

ولذلك فإن أعظم طريقة لجعل الناس يدخلون في دين الله هي: عَرض القرآن عليهم عرضًا صحيحًا، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وذلك أن القرآن الكريم اشتمل على أفضل الحجج العقلية، والبراهين اليقينية، فالحجج العقلية الكاملة في مباحث العقائد، هي في القرآن بأوضح طريقة وأحسن أسلوب.

لو قُدِّر أنه جاءتك شُبْهَةٌ، كما لو اطلعت على موقع في الإنترنت ووجدت شبهة، أو جاءك شخص وقال: هؤلاء أولياء الله، فكيف لا تريدوننا أن ندعوهم من أجل أن نجعلهم يُوصلون مطالبنا إلى الله؛ لأنهم أقرب منَّا إلى الله؟ فحينئذٍ نقول: هذه شبهة من شخص تجهله أو تظن فساد عقيدته، والواجب عليك إن كان لديك القدرة والأهلية للنظر في آيات القرآن في هذا الباب فخذ بهذا، وإن كنت عاجزًا فراجع العلماء.

ونقول في جواب هذه الشبهة: أنها حدثت في قوم نوح؛ فإن الرجال الذين عُبِدُوا، كانوا رجالًا صالحين، هل أنجاهم زعم من زعم أنهم يقربونهم إلى الله، ومع ذلك حكم الله بأن أفعالهم من الشرك لكون من توجه الناس إليه العبادة والدعاء من الصالحين، ومع ذلك لم يكن فعلهم صحيحا؛ بل كان من الشرك، فما أنجاهم كونهم علماء وأولياء لله.

وأيضًا انظر لقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، فهذه

الآية اشتملت على حجة عقلية متينة، فهذا الذي تدعوه من دون الله دعه يكلمك؛ بل دعه يستجب لك؛ فحينئذٍ كيف تدعو من لا يستجيب لك؟!

وهناك شبهات عُرضت في كتاب الله عز وجل، وأتى جوابها واضحا صريحا لتعليم الناس كيفية الجواب عن الشبهات، وانتبه فهناك من يحاول أن يشبه على الخلق، مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾. يعني: في شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] هذا القرآن إن كنتم تشكون فيه؟ إذن أعطونا سورة مثل آيات القرآن.

والعرب يعرفون العربية وكلامهم فصيح، وهذا القرآن من جنس كلامهم ومع ذلك قال: أنا أتحداكم أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، ومع مرور الأزمنة المتطاولة لم يأتِ أحد من أولئك العرب بسورة من مثله.

وكل المخاطبين عرفوا مقدار هذا الاستدلال؛ لأنهم عرب ويعرفون مقدار هذا الكلام، وبالتالي جاءت المحاولات اليسيرة محل سخرية، ولذا أعلن أكثر العرب عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن؛ لأنهم يعرفون أنهم سيعجزون عنه.

إذن هذه شبهة، قالوا: القرآن يمكن أن يكون من الله، ويمكن أن يكون من غير الله. قال: الجواب: إن كنتم تقولون أنه من عند غير الله -يعني من بشر مثلكم- فهاتوا سورة من مثله، قالوا: نعجز، إذن ليس من بشر مثلكم، وإنما هو من رب العزة والجلال.

وهكذا في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، فهـذا فيه أن صفة النبي الكريم ﷺ موجودة في

الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قالت تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولذلك أمر الله سبحانه بمراجعة أهل الذكر، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وفي مرات تأتي شبهات لإنسان على هيئة حديث نفس، مجرد خواطر، ما الطريقة الشرعية في علاجها؟

ألا نلتفت إليها، ولا نضع لها أي قيمة.

فمثلا شبهة يلقيها الشيطان في قلوب بعض الملحدين فيقوقون: الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟! وهذه وساوس شيطان، فنقول لك اتركها، ولا ترد عليها.

يقول النبي ﷺ لمّا قيل له: إن بعضنا ليقع في قلبه ما يتعاظم أن يُحدِّث به. قال النبي ﷺ: **(ذلك صريح الإيمان)**(١). يعني: حينما تركتم التكلم به كان ترككم للشبهة هو محض الإيمان، أي: الإيمان الخالص.

فإنه لو جاءك من تعرف أنه عدو يريد أن يُوقع العداوة بينك وبين الآخرين، وقال لك: فلان عنده كذا. من أجل أن يُوقع بينك وبينه العداوة، فإن الطريقة الشرعية، والطريقة العاقلة في التعامل معه، عدم الالتفات إلى شبهته.

فإن اتصل عليك شخص بالجوال، وأنت لا تريد مكالمته، لأنك تعرف أنه كاذب وأنه غشاش وأنه يريدك أن تقع في المصائب العظيمة، فأحسن ما تعمل معه أن لا ترد على اتصاله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢)، وأبو داود (٥١١١)، وأحمد (٩١٥٦).

إذن، هذه الوساوس من الشيطان الذي هو أعظم عداوة لك من أي شخص، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

إذن، علاج وساوس الشيطان أن لا نلتفت له، ولا نقول له شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[فصلت: ٣٦].

وفي الحديث: **(يَأتِي الشَّيطَانُ أَحَدَكُم فَيَقُولُ: مَن خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلَيستَعِذ بِاللهِ وَلَينتَهِ)**[1]. أي: يتوقف.

ومن الأمثلة للشبهات في زماننا الحاضر: أنهم يقولون: هذا منع الإنسان من الحديث بما يكون في نفسه، فهو ينافي الحرية. قلنا: لا ينافي الحرية؛ بل الامتناع من الكلام هو الحرية. فإنه لو جاءك إنسان بكلام كاذب وقال لك: زوجتك تفعل الفعل الشائن الفلاني، وأنت تعرف أنه كاذب، فإنك لا تتحدث بذلك، ولا تذهب لزوجتك وتقول: فلان يقول كذا؟ لأن هذا يُوقع الحزن في قلبها بلا فائدة، بل يوقع بينكم العداوة، وحينئذ تقول لك زوجتك: ما قلتَ هذا الكلام إلا لوجود شك فِيَّ، فتقع العداوة، والواجب عليك أن لا تتحدث بتلك الأكذوبة، وأن لا تنقلها لأحد؛ بل تعرض عنها، هكذا أيضًا تعمل مع الشبهات الشيطانية.

وعندما يأتينا صحفي ويكتب في الإنترنت أو في الجريدة مقالة مشتملة على هذه الشبهات، التي هي وساوس شيطانية أوقعها الشيطان في قلبه، كان الأولى به والأحرى ألا يلتفت إليها، وأن لا يكتبها وينشرها، وقد وصف الله من كان كذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

بقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]، أي: ليس عندهم إلا أنهم يزخرفون القول. وقد يأتون بآيات قرآنية ويشبهون بها، مثل أولئك الذين قالوا: خصمنا محمدًا، لأنه يقول: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وإنه قد عُبدت الملائكة وعُبد عيسى وعُزير، وهؤلاء ليسوا حصب جهنم، فنرضى أن نكون معهم[1]، ولم يتأملوا في هذه الآية؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾. و(ما) لغير العاقل. ولذلك نزلت الآية بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وهكذا لما جاء النصارى للنبي ﷺ يحتجون عليه بالقرآن، قالوا: نحن نقول: الله ثالث ثلاثة، وهذا موجود في القرآن، لأن الله يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فما الطريقة الشرعية في مثل هذا؟ نقول: هذه مشتبهات، وحكمها الشرعي أن تُرد إلى المُحكمات، من مثل قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ولذلك قال الله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾، ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ أي:

(١) أخرجه متصلا الطحاوي في شرح مشكل الآثار(٩٨٦)، والطبراني في الكبير (١٢٧٣٩)، والضياء في المختارة (٣٥١)، والواحدي في أسباب النزول (ص:٣٠٥)، وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١٣٦٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٨/٤٠)، وابن جرير في التفسير (٥٣٩/١٩)، وفي سيرة ابن هشام (٣٥٩/١).

كلمات أراد الله بها معنًى حقًّا؛ لكن بعض الناس يأتيه الشيطان، فيُلبِّس عليه، فيفهم منه معنًى باطلاً ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: انحراف عن الحق، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي: يأخذون بالتفسير الخاطئ الذي لا يَدُل عليه كلام الله، وذلك ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ والفتنة أي: جعل الناس ينصرفون من الحق إلى الباطل، فيرون أن الباطل هو الحق؛ فإن هذا هو الفتنة، والفتنة: أن ترى الباطل حقًّا. ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ يعني: صرفه عن معناه الحقيقي إلى معنًى باطل ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حقيقة، أي: لا يعلم حقيقته التي يؤول إليها إلا الله، ويقابل الذي في قلوبهم زيغ الراسخون، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. أي: يؤمنون أن الآيات المحكمة والآيات المتشابهة كلها من عند الله، ولذلك علينا أن نفسر الآيات المتشابهة بالآيات المحكمة، وحينئذ يُعرَفُ الحق.

* * * * *

بَيَانُ مَعنى الإِسْلَامِ:

الإِسْلامِ بِمَعنَى الدِّينِ:

١٥) يَجِيءُ لَفظُ الإِسلَامِ فِي لِسَانِ الشَّرعِ مُرَادًا بِهِ الدِّينُ كُلُّهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ص مِنَ العَقَائِدِ وَالأَعمَالِ وَالأَحكَامِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وَلِقَولِهِ ﷺ: (**بُنِيَ الإِسلامُ عَلَى خَمسٍ...**) الخ[1].

وَبِمَعنَى الانقِيَادُ وَالإِخلَاصُ:

١٦) الإِسلَامُ الَّذِي سُمِّيَ بِهِ الدِّينُ مَعناهُ الانقِيَادُ للهِ تَعَالَى ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَالإِخلاصُ لَهُ فِيهِمَا، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

تسميةُ الدِّين بالإسلام:

١٧) الدِّينُ كُلُّهُ اِنقِيَادٌ للهِ وَإِخلاصٌ لَهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ إِسلامًا، - لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

الإِسلامُ بِمَعنى الأَعمَالِ الظَّاهِرَة:

١٨) وَيَجِيءُ الإِسلامُ فِي لِسَانِ الشَّرعِ أَيضًا بِمَعنَى الأَعمَالِ الظَّاهِرَةِ الدَّالَّةِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ عَلَى الانقِيَادِ وَالإِذعَانِ المَبنِيَّةِ عَلَى التَّصدِيقِ التَّامِّ، لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ سُؤَالِ جِبرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: (**يَا مُحَمَّدُ أَخبِرنِي عَنِ الإِسلامِ؟**) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**الإِسلامُ أَن تَشهَدَ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الصَّلاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلا، قَالَ جِبرِيلُ: صَدَقتَ) رَوَاهُ مُسلِمٌ وَغَيرُهُ(١).

إِسلامٌ لا يَنفَعُ:

١٩) وَيَجِيءُ الإِسلامُ بِمَعنَى الاِستِسلاَمِ فِي الظَّاهِرِ دُونَ إِيمَانٍ فِي القَلبِ، وَهَذَا لاَ يَنفَعُ صَاحِبَهُ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢]، وَلِحَدِيثِ سَعدٍ: **أَعطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهطًا -وَسَعدٌ جَالِسٌ فِيهِم- قَالَ: فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنهُم مَن لَم يُعطِهِ وَهُوَ أَعجَبُهُم إِلَيَّ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَالَكَ عَن فُلان؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤمِنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَوَ مُسلِمًا؟) فَسَكَتَ قَلِيلاً ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعلَمُ مِنهُ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَالَكَ عَن فُلاَن؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤمِنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَوَ مُسلِمًا؟) فَسَكَتَ قليلاً ثُمَّ غَلَبَنِي مَا عَلِمتُ مِنهُ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَالَكَ عَن فُلَان؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤمِنًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَوَ مُسلِمًا؟ إِنِّي لأُعطِي الرَّجُلَ، وَغَيرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنهُ خَشيَةَ أَن يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجهِهِ)** رَوَاهُ مُسلِمٌ(٢).

الشرح:

قال المؤلف: "بَيَانُ مَعنَى الإِسلاَم".

١) كلمة الإسلام مَرَّةً -كما تقدم- يُرَاد بها التوحيد، وهذا المعنى اشترك فيه جميع الأنبياء.

---

(١) أخرجه مسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وابن ماجه (٦٣)، وأحمد (١٨٤) من حديث عمر رضي الله عنه، وورد نحوه عند البخاري (١٩)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).

٢) ومرة يراد به شريعة محمد ﷺ الذي جاء بها من عند الله سبحانه وتشتمل على جميع شعائر الدين، فإن كل الأحكام الشرعية تدخل في اسم الإسلام، ولذلك تقول: الصلاة من الإسلام، وصلة الرحم من الإسلام، الأخلاق الفاضلة من الإسلام. ومرات يُؤتى بكلمة الإسلام ويُراد بها أصل دين الإسلام، ومنه قوله ﷺ: **(أسلم تسلم)**(١).

قال: (يَجِيءُ لَفظُ الإِسلاَمِ فِي لِسَانِ الشَّرعِ مُرَادًا بِهِ الدِّينُ كُلُّهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مَحَمَّدٌ ﷺ).

كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. السلم هنا: الإسلام، وهو المراد بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾. وحديث: **(بُني الإسلام على خمس...)**(٢).

إذن؛ الإسلام يُرَاد به الدِّين، ومعنى الدين: الطاعة ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. فيما يتعلق بباطنك في قلبك، فطاعتك لله بالخوف منه ورجائه يدخل في اسم الدين، وكذلك طاعتك في الأمور الظاهرة، في أقوالك في أعمالك والإخلاص له فيهما.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أن أفضل الناس طاعة هم من أخلص لله تعالى وحده، فعمل إيمانا واحتسابا، فإنك تقول: سلِّم لي هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٠)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) سبق تخريجه.

المال، تسليم واستلام، كذلك هنا كأنك سلمت وجهك لله، فكانت عبادتك ووجهتك إلى رب العزة والجلال وحده ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: اتبع الشرع؛ لأن الدين يُبنى على أمرين: إخلاص، وهو إسلام الوجه لله، ومتابعة للنبي ﷺ وهو الإحسان. ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾. ﴿مِلَّةَ﴾أي: شريعة. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلا من الشرك إلى التوحيد. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، فرد الله دعواه وذكر أن من الذي يدخل الجنة حقيقة بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾. أي كانت عبادته لله وحده، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: على طريقة أنبياء الله، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١]. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

إذن؛ هذه علامة دينك: انقيادُك لله، مهما كان في مقابلة ذلك من شهوات أو شبهات أو قوة بشرية ولو كانت غاشمة، تقدم طاعة الله على طاعة أولئك.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. أي: الطاعة لله وحده. ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين من الشرك إلى التوحيد ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

إذن ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾المخاطب هم المشركون وأهل الكتاب: اليهود والنصارى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟﴾.

٣) ثم قال: قد يؤتى بلفظ الإسلام ويُرادُ به الأعمال الظاهرة، ويكون الإيمان يُراد به الأعمال الباطنة، كما قال النبي ﷺ لَمَّا سأل جبريل عن الإسلام قال: **(أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)**. هذا ظاهر.

٤) كذلك قد يأتي لفظ الإسلام ويُراد به الإسلام في الظاهر من المنافقين.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. ما معنى الإسلام؟ بعضهم قال: المراد به: أنكم وصلتم إلى الدرجة الأولى من درجات الدين وهي الإسلام، ولم تصلوا إلى الدرجة الثانية وهي درجة الإيمان.

وبعضهم قال: إن هؤلاء العوام من المنافقين، ولذلك سمى أعمالهم الظاهرة إسلامًا، وإن كانت لا تنفعهم في الآخرة، ولذا قال الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وجاء في الحديث أن جماعة جاءوا إلى النبي ﷺ، فتصدق على بعضهم، وكان سعد بن أبي وقاص جالسًا، فأعطى أربعة، وترك النبي ﷺ رجلاً لم يعطه النبي ﷺ. قال سعد: هو عندي أفضل من غيره، وعندي أن قيام ذلك الرجل بالطاعات والشرائع أفضل من غيره، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَالَكَ عَن فُلاَنٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤمِنًا، فَقَالَ النبي ﷺ: **(أَوَ مُسلِمًا)**. فكرر هذه اللفظة ثلاث مرات، وقال له النبي ﷺ في كل مرة: **(أَوَ مُسلِمًا)**. كأنه يقول: لا تشهد له بالإيمان؛ فإنك لا تعلم هل عنده إيمان في قلبه أو لا يكون كذلك، وأنت لم تشاهد إلا أعماله الظاهرة فقط.

ثم قال النبي ﷺ مُبيِّنًا لماذا أعطى أولئك ولم يعط هؤلاء، قال: **(إِنِّي لأُعطِي الرَّجُلَ، وَغَيرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنهُ خَشيَةَ أَن يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجهِهِ)**. يعني: تأتيه الدنيا فتُنسيه الآخرة وبالتالي يكون من أهل نار جهنم والعياذ بالله.

بَيَانُ مَعنَى الإِيمَانِ

الإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ:

٢٠) الإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: التَّصدِيقُ، لِقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

مَحَلُّ الإِيمَانِ:

٢١) مَحَلُّ الإِيمَانِ بِمَعنَى التَّصدِيقُ الجَازِمُ هُوَ القَلبُ، لِقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤]، ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، ولِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِي س قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(يُدخِلُ اللهُ أَهلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَيُدخِلُ مَن يَشَاءُ بِرَحمَتِهِ، وَيُدخِلُ أَهلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انظُرُوا مَن وَجَدتُم فِي قَلبِهِ مِثقَالَ ذَرَّةٍ مِن خَردَلٍ مِن إِيمَانٍ فَأَخرِجُوهُ)** رَوَاه مُسلِمٌ[١].

الإِيمَانُ بِمَعنَى التَّصدِيقِ:

٢٢) وَيَجِيءُ لَفظُ الإِيمَانِ فِي لِسَانِ الشَّرعِ مُرَادًا بِهِ التَّصدِيقُ الجَازِمُ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ كُلِّهِ خَيرِه وَشَرِّهِ، حُلوِهِ وَمُرِّهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وَلِحَدِيثِ سُؤَالِ جِبرِيلَ عليه السلام قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **(أَخبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ حُلوِهِ وَمُرِّهِ)**[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، وورد عند مسلم (١٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه " لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان".

(٢) أخرجه مسلم (٣٥)، وأصله عند البخاري (٩).

....

....

الشرح:

ثم قال المؤلف: "باب: بَيَانُ مَعنى الإِيمَانِ".

بعض الناس يقول: الإيمان في اللغة هو التصديق، قد يستدلون عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]. أي: بمصدق لنا. ولذلك قال بعض الناس: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، ونقول: هذا خطأ، فإن الإيمان في اللغة أعم من التصديق؛ لأن التصديق القلبي الذي لا يكون معه عمل لا يقال له إيمان، ولذا لما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾. لم يكن مدلولها: ليس بمصدق فقط، بل معناها: لست بمصدق بحيث لا تتهمنا بلسانك أننا قد قتلنا يوسف.

إذن لا يصح أن نجعل الإيمان مقتصرًا على ما في القلب فقط؛ بل الإيمان يشمل الأقوال والأعمال والاعتقادات؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **(الإيمان بضع وستون شعبة** -الإيمان- **أعلاها: قول لا إله إلا الله** -هذا الاعتقاد- **وأدناها إماطة الأذى عن الطريق).** فإن أخذ الحصاة من الشارع ووضعها خارج الطريق، وكذلك رفع حجر كبير في الشارع؛ ليس قولًا ولا اعتقادًا؛ بل هذا عمل، ومع ذلك جعله النبي ﷺ من الإيمان، فدل هذا على أن الإيمان لا يقتصر على ما في القلوب.

ولذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]. ما معنى ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾؟ هذه الآية نزلت في تحويل القبلة، كانت إلى بيت المقدس فحُوِّلت إلى الكعبة. ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ

﴿ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣]. لأنهم قالوا: صلواتنا الماضية إلى بيت المقدس ما حكمها؟ وأولئك الأشخاص الذين ماتوا قبل تحويل القبلة تضيع صلاتهم هباءً منثورًا؟ قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ يعني: صلواتكم(١).

قد يقول قائل بأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [العصر: ٢-٣]. فعطف العمل على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة، فيكون الإيمان مغايرا للعمل الصالح، فنقول: الأعمال الصالحة جزء من الإيمان، والعطف بالواو معناه عدم المطابقة ولا تقتضي المغايرة، ولذلك قال الله سبحانه بعدها: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ والتواصي بالحق من الأعمال الصالحة. وقال بعده: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ والتواصي بالصبر جزء من التواصي بالحق وكلاهما من الأعمال الصالحة.

فهكذا نقول: الأعمال الصالحة جزء من الإيمان، ولا يَمتنع أن يُؤتى بالاسم العام ثم يُعطف عليه بعض أفراده كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. الرمان نوع من الفاكهة، إذن قد يُؤتى بالاسم العام ثم بعد ذلك يُعطف عليه بعض أفراده.

فلا يمتنع في لغة العرب عطف الخاص على العام، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]. وجبريل وميكال من الملائكة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠).

وقد يقول قائل: إن الله يقول: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤].

والجواب أن يقال: نحن لم ننف أن أعمال القلوب تدخل في مسمى الإيمان، لكن ذلك لا يدل على أن أعمال الجوارح ليست من الإيمان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٥].

قل: فالإيمان بالله كما يتضمن اعتقادًا يتضمن عملًا، إذا آمنت بالله معناها أنك ستترك المعصية، إذا آمنت بالله معناها أنك ستُقدم على الواجبات التي أوجبها الله عليك.

ولا يعني هذا أننا ننفي الإيمان بوجود المعصية أو ترك الواجب، فإن هذه الأمور تزيل كمال الإيمان ولا تزيل الإيمان بالكلية، فأغصان الشجرة جزء منها، ولا يعني هذا زوال الشجرة عند قطع بعض أعضائها.

وقد يستدل بحديث أبي سعيد: **(يُدخِلُ اللهُ أَهلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَيُدخِلُ مَن يَشَاءُ بِرَحمَتِهِ، وَيُدخِلُ أَهلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انظُرُوا مَن وَجَدتُم فِي قَلبِهِ مِثقَالَ ذَرَّةٍ مِن خَردَلٍ مِن إِيمَانٍ فَأَخرِجُوهُ)**[1].

قل: والجواب أن يقال: هذا صحيح، نحن لم ننفِ أن يكون جزءًا من الإيمان ما في القلب، لكن الحديث لا يقتضي أن عمل الجوارح ليس من الإيمان.

وعلى فرض أننا قلنا بأن الإيمان هو التصديق، لكن التصديق يكون أيضا بالعمل؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **(إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزى اللسان المنطق، والنفس تمنى**

(١) أخرجه البخاري (٢٢).

وتشتهي، والفرج يُصدق ذلك كله ويكذبه)[١]. وتصديق الفرج عمل.

إذن؛ التصديق لا يقتصر على ما يتعلق بالقلوب.

قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ**﴾ [النساء: ١٣٦]. الإيمان بالله يكون بالاعتقاد الجازم بالقلب ويكون بالعمل الصالح، ولو كان يُراد به الاعتقاد الجازم فقط لما صح هذا الأمر؛ لأنه قال: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ**﴾. لو كان يقول: يا أيها المعتقدون الجازمون اعتقدوا اعتقادًا جازمًا، لما كان للآية معنًى، لكن لَمَّا كان الإيمان يدخل فيه الأعمال كأنه قال: يا أيها الذين آمنوا واصلوا واستمروا في إيمانكم، واستكملوا درجات الإيمان بأقوالكم وأعمالكم.

ويدلك على ما ذكرت لك أن النبي ﷺ فسر لفظ الإيمان في بعض المواطن بالأعمال الظاهرة.

قال ابن عباس: لما جاء وفد عبد القيس أمرهم النبي ﷺ بالإيمان بالله وحده، ثم قال: **(هَل تَدرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟)** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: **(شَهَادَةُ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَأَن تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنَ المَغنَمِ)**[٢].

إذن؛ عرفنا حقيقة معنى الإسلام ومعنى الإيمان، وأن الإيمان لا يقتصر على اعتقادات القلب، بل يشمل نطق اللسان ويشمل عمل الجوارح.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

الإِيمَانُ بِمَعنى الأَعمَالِ الظَّاهِرَةِ:

٢٣) وَيَجِيءُ فِي لِسَانِ الشَّرعِ أَيضًا مُرَادًا بِهِ الأَعمَالُ الظَّاهِرَةُ مِنَ الأَقوَالِ وَالأَفعَالِ المَبنِيَّةِ عَلَى التَّصدِيقِ وَاليَقِينِ، لِحَدِيثِ وَفدِ عَبدِ القَيسِ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحدَهُ، وَقَالَ ﷺ: **(هَل تَدرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟)** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: **(شَهَادَةُ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَأَن تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنَ المَغنَمِ)** رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ.

تَلاَقِي مَعنَى الإِسلاَمِ وَالإِيمَانِ:

٢٤) قَد تَوَارَدَ لَفظُ الإِسلاَمِ وَلَفظُ الإِيمَانِ عَلَى اعتِقَادِ القَلبِ الجَازِمِ، وَالأَعمَالِ الظَّاهِرَةِ مِن قَولٍ وَغَيرِهِ المَبنِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ الاعتِقَادِ، لِحَدِيثِ جِبرِيلَ المُتَقَدِّمِ فِي تَفسِيرِ الإِسلاَمِ، وَحَدِيثِ وَفدِ عَبدِ القَيسِ المُتَقَدِّمِ فِي تَفسِيرِ الإِيمَانِ.

ونطق اللسان بالشهادتين تصديق، وفي نفس الوقت هو خضوع وانقياد، والزكاة تصديق وإذعان وطاعة، ومن الإيمان محبتك لإخوانك المؤمنين، وليست المحبة ثمرة للإيمان؛ بل هي جزء من أجزائه، أي أن اسم الإسلام قد يطلق ويراد به الإيمان، كما قد يطلق الاسم الإيمان ويراد به الإسلام، فكل من هذين الاسمين يطلق على الآخر، خصوصا إذا لم يذكر الاسم الآخر معه.

ويلاحظ أن الأعمال والأقوال الموافقة للشرع هي تصديق له ، وليست خارجة عن مفهوم التصديق؛ بحيث يقال بأنها مبنية عليه.

تَحصِيلٌ مِمَّا تَقَدَّمَ

تَوَارُدُ الإِسلاَمِ وَالإِيمَانِ عَلَى الاعتِقَادِ وَالنُّطقِ وَالعَمَلِ:

حَقِيقَةُ الدِّينِ:

٢٥) الدِّينُ كُلُّهُ عَقدٌ بِالقَلبِ، وَنُطقٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلاثَةِ يُسَمَّى إِيمَانًا بِاعتِبَارٍ، وَيُسَمَّى إِسلاَمًا بِاعتِبَارٍ آخَرَ.

١- فَعَقدُ القَلبِ يُسَمَّى إِيمَانًا لأَنَّهُ تَصدِيقٌ، وَيُسَمَّى إِسلاَمًا لأَنَّ عَقدَ القَلبِ عَلَى الشَّيءِ إِذعَانٌ وَخُضُوعٌ لَهُ.

٢- وَنُطقُ اللِّسَانِ بِالشَّهَادَتَينِ يُسَمَّى إِيمَانًا لأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى التَّصدِيقِ وَيُسَمَّى إِسلَامًا لأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى الخُضُوعِ وَالانقِيَادِ.

٣- وَالزَّكَاةُ مَثَلاً تُسَمَّى إِيمَانًا لأَنَّهَا مَبنِيَّةٌ عَلَى التَّصدِيقِ، وَثَمرَةٌ مِن ثَمَرَاتِهِ، وَتُسَمَّى إِسلامًا لأَنَّهَا انقِيَادٌ وَإِذعَانٌ.

٤- وَالحُبُّ فِي اللهِ مَثَلاً يُسَمَّى إِيمَانًا لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَى التَّصدِيقِ وَثَمرَةٌ مِن ثَمَرَاتِهِ، وَيُسَمَّى إِسلامًا لأَنَّهُ انقِيَادٌ وَإِذعَانٌ.

الشرح:

قال: «وَالزَّكَاةُ مَثَلاً تُسَمَّى إِيمَانًا لأَنَّهَا مَبنِيَّةٌ عَلَى التَّصدِيقِ».

يدخل في الإيمان في الوضع الشرعي حسب النصوص القرآنية والسنة النبوية أقوال اللسان، وَعَمَلٌ بِالقَلبِ وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، فَمَنِ استَكمَلَ ذَلِكَ استَكمَلَ الإِيمَانَ، وَمَن لَم يَستَكمِلهُ لَم يَستَكمِلِ الإِيمَانَ، ولا يعني أننا ننفي عنه اسم الإيمان.

فمثلا: صلاة النافلة بالليل من الإيمان، ولو قُدِّر أن إنسانًا لم يصلِّ بالليل، فلا يصح أن نقول: هذا ليس مؤمنًا.

نأتي بمثل يوضح هذا: الأوراق في الشجرة أليست من الشجرة؟ لو قُطعت بعض هذه الأوراق من الشجرة فإنه لا يزول اسم الشجرة؛ بل تبقى شجرة؛ هكذا أيضًا فيما يتعلق بالإيمان، لكن هناك أشياء نزعها لا يؤثر مع أنها من الإيمان وهناك أشياء مؤثرة تأثيرًا قليلاً كالأغصان الجانبية، وهناك أشياء تؤثر تأثيرًا كبيرًا

كالأغصان الأصلية، وهناك أشياء تلغي الإيمان بالكلية كما لو أخذ الجذع، ولو كانت الأغصان باقية؛ فإننا أخذنا الجذع فأتلفناه؛ فإن ما على الشجرة من إغصان لا يزال باقيًا، ومع ذلك فإنها لا تسمى شجرة، لموت الشجرة.

ولذلك ذَكَرَ الله سبحانه أن الأعمال الصالحة تدخل في مسمى الإيمان فقال: **﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾** [الحج: ٣٥].

وقال: **﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾** [الحجرات: ١٥]. فأدخل الجهاد في مسمى الإيمان.

وقال ﷺ: **(لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفسِهِ)**(١). جعل محبة الخير للآخرين من الإيمان.

وقال: **(لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ)**(٢). فجعل محبة الرسول ﷺ من الإيمان.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

الإِيمَانُ قَولٌ وعَمَلٌ:

٢٦) الإِيمَانُ فِي الوَضعِ الشَّرعِيِّ هُوَ قَولٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالقَلبِ وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، فَمَنِ استَكمَلَ ذَلِكَ استَكمَلَ الإِيمَانَ، وَمَن لَم يَستَكمِلهُ لَم يَستَكمِلِ الإِيمَانَ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفسِهِ)** رَوَاهُ الشَّيخَانِ عَن أَنَسٍ رضي الله عنه، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ)**، رَوَاهُ الشَّيخَانِ عَن أَنَسٍ رضي الله عنه، وَلِقَولِه ﷺ: **(الإِيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ، أَو بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعبَةً، فَأَفضَلُهَا قَولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)**، رَوَاهُ الشَّيخَانِ -رَحِمَهُمَا اللهُ- عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه.

الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنقُصُ:

٢٧) الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنقُصُ، يَزِيدُ بِزِيَادَةِ الأَعمَالِ وَيَنقُصُ بِنُقصِهَا، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ، وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمَانِ)**، رَوَاهُ الشَّيخَانِ عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه[1].

التَّصدِيقُ يَقوَى وَيَضعُفُ:

٢٨) التَّصدِيقُ الَّذِي هُوَ الجُزءُ الأَصلِيُّ فِي الإِيمَانِ يَقوَى وَيَضعُفُ، يَقوَى بِالنَّظَرِ فِي الآيَاتِ الكَونِيَّةِ، وَالتَّدَبُّرِ فِي الآيَاتِ السَّمعِيَّةِ، وَالتَّقَرُّبِ بِالعِبَادَاتِ الشَّرعِيَّةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

وَيَضعُفُ بِضِدِّ ذَلِكَ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(مَن نَفَّسَ عَن مُسلِمٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ عَن مُعسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَونِ العَبدِ مَا كَانَ العَبدُ فِي عَونِ أَخِيهِ، وَمَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فِيهِ عِلمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجتَمَعَ قَومٌ فِي بَيتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ يَتلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَينَهُم إِلاَّ نَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ وَحَفَّتهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِندَهُ، وَمَن أَبطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ)** رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)]، وَلِحَدِيثِ حَنظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنه -وَكَانَ مِن كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ- قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكرٍ، فَقَالَ: كَيفَ أَنتَ يَا حَنظَلَةُ؟ قَالَ: قُلتُ: نَافَقَ حَنظَلَةُ! قَالَ: سُبحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟! قَالَ: قُلتُ: نَكُونُ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأيُ عَينٍ، فَإِذَا خَرَجنَا مِن عِندِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسنَا الأَزوَاجَ وَالأَولادَ وَالضَّيعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكرٍ: إِنَّا لَنَلقَى مِثلَ هَذَا! فَانطَلَقتُ أَنَا وَأَبُو بَكرٍ حَتَّى دَخَلنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلتُ: نَافَقَ حَنظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(وَمَا ذَاكَ؟)** قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِندَكَ تُذَكِّرُنَا بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى كَأَنَّا رَأيُ عَينٍ، فَإِذَا خَرَجنَا مِن عِندِكَ عَافَسنَا الأَزوَاجَ وَالأَولادَ وَالضَّيعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِندِي فِي الذِّكرِ لَصَافَحَتكُمُ المَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وَفِي طُرُقِكُم، وَلَكِن يَا حَنظَلَةُ: سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً)** رَوَاهُ مُسلِمٌ[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٩٤٥)، وأحمد (٧٤٢٧)، وروى بعضه أبو داود (١٤٥٥)، و (٣٦٤٣)، و (٤٩٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤)، وابن ماجه (٤٢٣٩)، وأحمد (١٩٠٤٥).

الشرح:

قال المؤلف: "الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنقُصُ".

الناس في الإيمان ليسوا على رُتبة واحدة؛ بل هم متفاوتون، وهنا فإنه لا يصح لأحد أن يقول بأن إيمانه يماثل إيمان أبي بكر وعمر وإيمان جبريل وميكال.

فزيادة الإيمان قد تكون بزيادة الاعتقاد واليقين، وقد تكون بزيادة الأقوال، وقد تكون بزيادة الأعمال، وعند نقص هذه الأمور أو بعضها يحصل النقص في الإيمان.

وقد تواترت النصوص بإثبات زيادة الإيمان، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا**﴾ [الأنفال: ٢].

وقال -جل وعلا-: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاس إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا**﴾ [التوبة: ١٢٤].

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: **(مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَليُغَيِّرهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ، وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمَانِ)**(١).

وتقدم معنا في الحديث الذي أُخرج من النار إلى الجنة، قال: **(أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٢٧٥)، وأحمد (١١٠٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٤).

والتصديق القلبي يضعف ويقوى، إذن ما في القلوب قد يضعف وقد يقوى، وتسمية التصديق باسم الجزء الأصلي أمر فيه ما فيه لعدم ورود الدليل الدال على هذا التفضيل، وإنما هي كلها أجزاء.

وعلى كلٍّ؛ فقد جاءت نصوص شرعية ببيان أن الاعتقاد القلبي يزيد وينقص، ولذلك جاء في سورة التكاثر: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، وعلم اليقين مرتبة قلبية ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ١-٧] فذكر عين اليقين، وهذه مرتبة أعلى.

وفي سورة الحاقة قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]. وحق اليقين مرتبة أعلى من علم اليقين وعين اليقين.

مثال يوضح ذلك: عندما يأتيك أناس كُثر ويقولون: في جنيف(١) مركز إسلامي؛ يصبح عندك علم يقين؛ لأنك تجزم بهذا الخبر، لأن أهل التواتر قد رووه، وهذا نستفيد منه علما يقينيا، فإذا أتيت إليه وشاهدته قبل أن تدخل فيه يصبح عندك عين اليقين، فإذا دخلت وتجولت فيه أصبح عندك حق اليقين.

مثال آخر: شخص أُخبر بوجود البحر خبرًا متواترًا، فأصبح لديه علم يقين، فلما شاهده أصبح عنده عين اليقين، فلما سبح فيه أصبح عنده حق اليقين.

فجعل العلم بمثل هذا متفاوتًا.

---

(١) ثم شرح هذا الكتاب ابتدأ في المركز الإسلامي في جنيف، الذي بناه الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود غفر الله له.

....

واستدل لذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. إذن هناك زيادة في الإيمان والطمأنينة، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: **(لَيسَ الخَبَرُ كالمُعَايَنَةِ)**(١).

إن الله عز وجل لما أخبر موسى بما صنع قومه في العجلَ، لم يلقِ الألواح؛ فلمَّا عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت(٢).

ولذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. ليزداد يقينًا.

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(مَن نَفَّسَ عَن مُسلِمٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ...)** إلى أن قال: **(وَمَا اجتَمَعَ قَومٌ فِي بَيتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَينَهُم؛ إِلاَّ نَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ، وَحَفَّتهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِندَهُن وَمَن أَبطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ)**(٣).

قال حَنظَلَةَ -وكَانَ مِن كُتَّابِ النبي ﷺ-: لَقِيَنِي أَبُو بَكرٍ، فَقَالَ: كَيفَ أَنتَ يَا حَنظَلَةُ؟ قَالَ: قُلتُ: نَافَقَ حَنظَلَةُ! قَالَ: سُبحَانَ اللهِ! مَا تَقُولُ؟! قَالَ: قُلتُ: نَكُونُ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأيُ عَينٍ، فَإِذَا خَرَجنَا

---

(١) أخرجه ابن حبان في ((المجروحين)) (١/١٨٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٦٩٤٣)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (١/٢٠٠).

(٢) صحيح، أخرجه أحمد (١٨٤٢)، و(٢٤٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

مِن عِندِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسنَا الأَزوَاجَ وَالأَولاَدَ وَالضَّيعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا. والمراد بالضَّيعات: الأعمال الزراعية وغيرها. فقال أبو بكر: إِنَّا لَنَلقَى مِثلَ هَذَا! فَانطَلَقتُ أَنَا وَأَبُو بَكرٍ حَتَّى دَخَلنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلتُ: نَافَقَ حَنظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: **(وَمَا ذَاكَ؟)** فذكر له مثل ما ذكر لأبي بكر، فقال النبي ﷺ: **(وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِندِي فِي الذِّكرِ لَصَافَحَتكُمُ المَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وَفِي طُرُقِكُم، وَلَكِن يَا حَنظَلَةُ: سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً).**

وقوله: ساعة وساعة، ليس بمعنى ساعة طاعة وساعة معصية، وليس كذلك معناه ساعة ذكر وساعة غفلة.

وإنما الأعمال والطاعات تتنوع وتختلف، فتجعل لكل عمل منها ساعة، ولذلك أنك عندما تعامل الناس بمعاملة طيبة، تكون قد أطعت الله، وعندما تضحك مع أهل بيتك وتدخل السرور عليهم تكون بذلك مطيعًا لله سبحانه، وهذه إحدى الساعتين، إذن هناك ساعة للذكر تطيع الله به، وهناك ساعة للطاعات الأخرى؛ ولذلك حياة المؤمن كلها طاعة، لكنها متنوعة متعددة، فتختلف، فهذا معنى قول النبي ﷺ: **(ساعة وساعة).**

* * * * *

انعدام اليقين:

٢٩) مَن عُدِمَ مِن إيمَانِهِ اليَقِينُ خَرَجَ مِن دَائِرَةِ المُؤمِنِينَ، وكَانَ مِن جُملَةِ الكَافِرِينَ، ولَو نَطَقَ بِالشَّهَادَتَينِ، وعَمِلَ أعمَالَ المُؤمِنِينَ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

الشرح:

قال: «مَن عُدِمَ مِن إيمَانِهِ اليَقِينُ خَرَجَ مِن دَائِرَةِ المُؤمِنِينَ».

المراد باليقين: الاعتقاد الجازم، وقد يطلق على الأمر المحتم الوقوع، قال تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، ومن صفة أهل الإيمان يقينهم بالله، وجزمهم باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فما ثبت لله عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ، وجب الجزم به والتصديق له، ومن لم يفعل ذلك مع علمه بأنه خبر الله، كان بمثابة المكذبين له؛

ولذا قال المؤلف: «من عدم من إيمانه اليقين خرج من دائرة المؤمنين، وكان من جملة الكافرين ولو نطق بالشهادتين، وعمل أعمال المؤمنين»، واستدل المؤلف على ذلك بعدد من الآيات القرآنية، منها: قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ومفهوم هذا أن الكفر بد يكون بعدم الجزم واليقين، ولا يعني هذا انحصار الكفر بهذا النوع؛ بل قد يحصل الكفر بالأعمال، وقد يحصل بالكفر بالأقوال، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وسيقرر المؤلف هذا المعنى فيما سيأتي، حين ذكره ككفر الإباء والاستكبار، ككفر إبليس، كما أنه هنا أشار إلى أن من أنواع الكفر النفاق الأكبر.

* * * * *

إِبَايَةُ النُّطقِ:

٣٠) مَن عُدِمَ مِنهُ النُّطقُ إِبَايَةً وَعِنَادًا لَم يَكُن مِنَ المُؤمِنِينَ، وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

المَعرِفَةُ بِدُونِ خُضُوعٍ:

٣١) مَن لَم يُخضِعْ قَلبَهُ لِمَا عَرَفَهُ مِن عَقَائِدِ الإِسلَامِ لَم تُفِدهُ تِلكَ المَعرِفَةُ، وَلَم يَكُن بِهَا مِنَ المُسلِمِينَ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦].

الشرح:

قال: «مَن عُدِمَ مِنهُ النُّطقُ إِبَايَةً وَعِنَادًا».

لو رفض أن يتكلم بهذا الدين فحينئذٍ لا يُعد مسلمًا، يقـول: أنا موقنٌ بقلبي -فقط- أن الله حق، وأن العبادة لله، وأن **(لا إله إلا الله)** حق، ولكنه لم يُذعن لذلك بلسانه وعمله؛ فهذا ليس من المؤمنين، فإن إبليس يعرف أنه **(لا إله إلا الله)** وأن العبودية حق وواجب لله سبحانه، ومع ذلك ليس من المؤمنين.

وهكذا قوم موسى كما قال الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿**وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤]، فإنهم لما امتنعوا عن عبودية الله واتباع رسوله على جهة الاستكبار كما حكى الله عن فرعون وقومه، أنهم قالوا: ﴿**فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وهو كفر أبي طالب، فإنه كان يعرف صدق النبي ﷺ؛ ولكنه لم ينقد له ولم يتبعه حمية لدين آبائه.

كذلك لابد للإنسان أن يخضع لخبر الله، فإن من كذّب الله في خبره فإنه يخرج من دائرة الإسلام، إلا أن يكون جاهلًا فيُعلَّم، ولذلك اليهود كانوا يعرفون أن محمدًا ﷺ صادق، وأن دينه حق؛ لكن لم تنفعهم هذه المعرفة؛ بل قامت عليهم الحجة بذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿**قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٢].

الإِيمَانُ بِدُونِ عَمَلٍ:

٣٢) مَن ضَيَّعَ الأَعمَالَ لَم يَخرُج مِن دَائِرَةِ الإِيمَان، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وَلِحَدِيثِ أَبِي بَكرَةَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (**إِذَا التَقَى المُسلِمَان بِسَيفَيهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقتُولُ فِي النَّارِ**)، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقتُولِ؟ قَالَ: (**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتلِ صَاحِبِهِ**). رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

ارتِكَابُ المَعَاصِي وَأَثَرُهُ:

٣٣) مَنِ ارتَكَبَ المَعَاصِي سُمِّيَ فَاسِقًا حَتَّى يَتُوبَ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤-٥].

الشرح:

يقرر المؤلف أنه لا يجوز تكفير المؤمن بسبب تركه الواجبات الشرعية، أو بسبب إقدامه على المعاصي، وبالتالي لا يجوز أن نحكم على شخص بالكفر لكونه زنى أو سرق أو قتل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ سماه أخاه، مع أن هناك قتلاً وسَفكَ دَم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، ثم قال في الآية التي تليها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، فقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، دليل على أن ذنب الاقتتال وهو ذنب عظيم لا يكون كفرا.

وجاء في حديث أبي بكرة: **(إِذَا التَقَى المُسلِمَانِ بِسَيفَيهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقتُولُ فِي النَّارِ)**، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقتُولِ؟ قَالَ: **(إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتلِ صَاحِبِهِ)**. فلم يحكم عليهما بالكفر مع وجود الاقتتال؛ بل حكم عليهما ببقاء الإسلام، ولذلك قال: **(المُسلِمَانِ)**.

فإن قال قائل: كيف يكونان في النار مع أنهما مسلمان؟

نقول: آخر أمرهما إلى الجنة، كما هو الشأن في أهل المعاصي والكبائر.

ومن ارتكب المعاصي سُمي فاسقًا حتى يتوب، فهو مؤمن عاصٍ، قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ولذلك فإن المقدم على الذنوب الكبائر التي فيها حد شرعي؛ فإننا نقوم بتنفيذ الحد عليه، ولا نحكم بردته، ولا نطبق عليه حد الردة كالسارق والقاذف والزاني؛ بل يجلد أو يقطع ولا يقتل، والجلد إنما يكون من صاحب الولاية لا من أفراد الناس.

* * * * *

بَيَانُ مَعنى الإِحسَانِ

الإِحسَانُ لُغَةً وَشَرعًا:

٣٤) الإِحسَانُ فِي اللُّغَةِ: الإِتيَانُ بِمَا هُوَ حَسَنٌ، وَالإِحسَانُ فِي الشَّرعِ: هُوَ الإِتيَانُ بِالحَسَنَاتِ، وَالحَسَنَاتُ هِيَ: فِعلُ الوَاجِبَاتِ وَالمُستَحَبَّاتِ، وَتَركُ المُحَرَّمَاتِ وَالمَكرُوهَاتِ، وَفِعلُ أَو تَركُ المُبَاحَاتِ لأَنَّهَا مُباحَاتٌ، مَعَ التَّصدِيقِ بِذَلِكَ للهِ تَعَالَى وَالإِخلاَصُ لَهُ فِيهِ، وَمَعَ استِحضَارِ رُؤيَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ وَاطِّلاعِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وَلِقَولِهِ -عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- فِي حَدِيثِ جِبرِيلَ ﵇، لَمَّا فَسَّرَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ الإِحسَانَ، قَالَ: **(أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)** رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ.

الشرح:

الإحسان: الإتيان بالشيء الطيب الفاضل الحسن، ويراد به في الشرع: الإتيان بالحسنات، فالإحسان فعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات.

والإحسان يشمل نوعين: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، ومبنى الإحسان على المتابعة للنبي ﷺ، فإن كل من كان أكثر اتباعًا للنبي ﷺ فهو أكثر إحسانًا.

وتقدم معنا أن المتابعة والإخلاص هما أساس الإحسان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]، فإن معنى أحسن عملاً **صفتان:** الإخلاص، والمتابعة للرسول ج، وهذا معنى قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. ﴿عَمَلاً صَٰلِحًا﴾، يتبع فيه النبي ﷺ، فهذا متابعة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾. هذا إخلاص ومن ثم لابد من وجود الشرطين.

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ وهذا إخلاص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا متابعة، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

والإحسان سبب لمحبة الله للعبد ومعيته، وللحصول على الأجور العظيمة، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

واستمع لخصال رتبة الإحسان وثمراتها في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا

يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

إذن؛ عرفنا شروط الإحسان، والآن نأتي إلى أركان الإحسان، وهما التقوى والصبر.

وقد فسَّر النبي ﷺ الإحسان بأنك تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، بمعنى: أنك تؤدي العمل على أكمل الوجوه، مستشعرا مراقبة الله عز وجل لك، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]؛ بل إن اطلاع الله عز وجل على العباد لا يقتصر على الأمور الظاهرة؛ بل يشمل الأمور الباطنة، كما قال عز وجل: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

* * * * *

عَقَائِدُ الإِيمَانِ:

عَقِيدَةُ الإِيمَانِ بِاللهِ:

الوُجُودُ وَالقِدَمُ وَالبَقَاءُ:

٣٥) هُوَ المَوجُودُ الحَقُّ لِذَاتِهِ، الَّذِي لاَ يَقبَلُ وُجُودُهُ العَدَمَ، فَهُوَ القَدِيمُ الَّذِي لاَ بِدَايَةَ لِوُجُودِهِ، وَهُوَ البَاقِي الَّذِي لاَ نِهَايَةَ لِوُجُودِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]. وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٢-٤]. وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]. وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

الشرح:

هُوَ المَوجُودُ الحَقُّ: تواترت الأدلة العقلية والنقلية على إثبات وجود الله لا إشكال فيه لا يُجَادل فيه إلا ناقص عقل، إذ هذه المخلوقات البديعة العظيمة لا يمكن أن تكون أوجدت نفسها، فهل يمكن أن يوجد مصنع يبني نفسه؟ هذا في المصنع الذي مسافته قليلة، فكيف بالكون العظيم بسماواته وأرضه؟

ثم إن النظام البديع والترتيب الدقيق في الكون، يدل على وجود مبدعه، فإنه لو تركت إحدى الدول من دون تنظيمات، كم يحدث فيها من الفوضى؟

مع أن الناس يمكن أن ينظموا أنفسهم ويرتبوها، فهكذا أيضًا فيما يتعلق بالكون؛ ولذا جاءت النصوص بالتأكيد على هذا المعنى في آيات عظيمة، مما يدل على وجود الخالق سبحانه، التذكير بآثار أفعال الله في الكون، كيف فعل سبحانه بالطغاة الظلمة، وكيف أسدى النعم للعباد الذين قاموا بعبودية الله وطاعته، وكيف فطر النفوس وهيأها، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولقد لفت الله سبحانه الأذهان إلى العديد من مخلوقاته العظيمة، ومنها: الشمس، القمر، الليل، النهار، فانظر إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٨]. فهذه آيات كونية عظيمة تُذكِّر بالله سبحانه، وتعرِّف العباد بقدرة الله على خلق المتقابلات.

والله -جل علا- لا يقال: له بداية، ولا يقال: له نهاية، فإن تصور ذات الله فوق طاقة أذهاننا.

وقد ذكر الله تعالى للعباد آثار فعله سبحانه، ليستدلوا بها على وجوده، قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فاطر السموات والأرض، معناها: أوجدهما على غير مثال سابق.

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾. فهذا حساب منظم دقيق ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾. أي: يتصرف في الكون، ويوضح العلامات الدالة على ربوبيته وعلى ألوهيته ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. أي: تجزمون بأنكم ستنتقلون للدار الآخرة، فتحاسبون على أعمالكم.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: الجبال، ﴿وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطي أحدهما بالآخر، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: نابتة من أصل واحد ونابتة من أصول متعددة، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ والسؤال: من الذي فرق بين هذه الأنواع، مع أنها تُسقى بماء واحد وفي تربة واحدة؟! ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، فأنواع الصنف الواحد من المزروعات مختلفة، فإن هذه نوعية جيدة وهذه نوعية أقل، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣-٤]. فهل يعقل أن تكون هذه الأشياء العظيمة فوضى عبثية ليست بدون خالق مدبر لم تكن كذلك.

قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي: وهب كل واحد من المخلوقات قدرة تمكنه من تحصيل منافعه، ولذلك نقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقوله: العالَمِين: جمع عالم، وما سوى الله من أجناس المخلوقات فهو عالم، كالأسماك والطيور والحيوانات والإنس والجن، وقوله: (رب): يعني أنه سبحانه الذي يربي الخلق، ويُسْبغ عليهم النِّعَم.

ومن أعظم الأدلة والبراهين ما نبه عليه سبحانه بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]. إذن هذا في صفات الكون، تدل على الخالق سبحانه، وهكذا في صفات الخالق كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ومن الأدعية التي كان النبي ﷺ يرغب أن تقال قبل النوم: **(اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)**[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٧٣)، وأحمد (٨٩٦٠).

سَبقَ وُجُودُهُ لِكُلِّ وُجُود:

٣٦) وَهُوَ الْمَوجُودُ الَّذِي سَبَقَ وُجُودُهُ كُلَّ وُجُودٍ، فَكَانَ تَعَالَى وَحدَهُ وَلَا شَيءَ مَعَهُ، ثُمَّ خَلَقَ مَا شَاءَ مِن مَخلُوقَاتِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

الشرح:

قال: «وَهُوَ الْمَوجُودُ الَّذِي سَبَقَ وُجُودُهُ كُلَّ وُجُودٍ -لو قال: وجوده كل موجود، فَكَانَ اللهُ تَعَالَى وَحدَهُ وَلاَ شَيءَ مَعَهُ، ثُمَّ خَلَقَ مَا شَاءَ مِن مَخلُوقَاتِه».

وجود الله عز وجل أزلي كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣]، ومن ثم لم يكن شيء قبله سبحانه، والمخلوقات كلها موجودة بعد العدم، ويبقى عندنا مسألة وهي: هل الخلق قديم أو جديد؟

نقول: ما تريد بالخلق؟ والجواب أن نقول: هذا فيه معنيان، الخلق الذي هو صفة لله، وهذا قديم، فإن الله سبحانه خالق قبل وجود المخلوقات، والمعنى الثاني أن الخلق تُطلَق ويراد بها المخلوقات الموجودات، فهذه حادثة موجودة بعد أن لم تكن، ولذلك قد تجدون بعض الناس ينسب لبعض أهل العلم أنه يقول بقدم جنس المخلوقات، وهذا خطأ، فإنه لا أحد يقول بهذا من علماء الإسلام، والذي

قال: الخلق قديم. لم يرد به قدم المخلوقات، وإنما أراد به: قدم صفة الخلق لله سبحانه لأن صفات الله قديمة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣].

ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الفرقان: ٥٩].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩]. يقول: ستة أيام حقيقة، والسؤال: ما مقدار هذه الأيام؟ فنقول: الله أعلم بها.

وإذا جاءنا إنسان فقال: ذكر الستة الأيام رمز على قصر الأيام أو طولها. فنقول: هذا خطأ، لأن الأصل في كلام الله أن يراد به ظاهره، ولا يجوز أن نترك هذا الظاهر بدون دليل ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾. فإن كلمة استوى، معناها في اللغة يتنوع بحسب السياق، فإذا جاء بعدها (على) تطلق ويراد بها الارتفاع والعلو والاستقرار، حينئذٍ نثبت ذلك.

إذا جاءنا إنسان وقال: استوى بمعنى استولى. قلنا: هذا خطأ؛ لأن الاستيلاء ليس على العرش وحده، ثم الاستيلاء على العرش ليس منحصرًا بما بعد خلق السموات والأرض ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾. قد يكون هذا الكفر بجحده وإنكار وجوده، أو بعدم الاعتراف بربوبيته وتصرفه في الكون، أو بنفي أسمائه وصفاته أو بعدم إفراده بالعبادة، ولعل هذا المعنى الأخير هو الأظهر؛ ولذلك قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، أي أمثالا تصرفون لهم العبادة، ولم يقل: تجحدونه وتنكرون وجود ذاته، قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]، فإن النـد: المثيـل الشبيه سـواء في

الطاعة أو في العبودية أو في اعتقاد التصرف في الكون. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالا، ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي: والى عليها الخيرات، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أي: أرزاق أهلها. ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ من أجل ألاَّ يتأسف أحد منكم على ما فاته من الرزق ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]، أي: لمن أراد السؤال عن ذلك، وعلى مراد من له حاجة.

ثم قال -جل وعلا-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. هنا عدَّى الفعل استوى بـ (إلى) فقال: (استوى إلى)، وهناك فرق بين (استوى إلى) وبين (استوى على)، فإن (استوى إلى) بمعنى: قصد وعمد، وأما إذا قيل: استوى بدون إلى ولا على وكان الفاعل واحدًا، فمعناه أنه وصل حد الغاية؛ يقال: استوى الطعام، وإذا كان الفاعل أكثر من واحد فهذا يدل على المساواة، تقول: استوى فلان وفلان، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهنا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يعني: ففرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين آخرين، ورتب في كل سماء ما تحتاج إليه، وزين السماء الدنيا بمصابيح وهي النجوم ﴿وَحِفْظًا﴾ يعني: إذا أراد بعض الجن أن يسترق السمع وجهت له هذه النجوم- ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]، هذه الأمور المرتبة من مخلوقات الله، الدالة عليه سبحانه.

* * * * *

غناؤُهُ عن كُلِّ موجُود:

٣٧) فَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ المَوجُودَاتِ، وَهِيَ المُفتَقِرَةُ كُلُّهَا -ابِتِدَاءً وَدَومًا- إِلَيهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [فاطر: ١٥-١٦]، ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢]، ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

الشرح:

ثم إنه سبحانه غني بذاته، لا يحتاج إلى أحد من الخلق في كل الأحوال، وفي جميع الأزمان، ونحن محتاجون إليه في كل حركاتنا وسكناتنا، وعبادتنا لا يحتاج الله ﷻ إليها؛ بل نحن المحتاجون إلى هذه العبادة، وكل العباد يفتقرون إلى الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. غني: أي مستغنٍ عنكم لا يحتاج إليكم ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾أي: يزيلكم من الوجود ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾. أمة أخرى غيركم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٦-١٧]. ليس صعبًا على رب العزة والجلال أن يذهبكم ويأتي بقوم غيركم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٣-٦٤]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾[الأنعام: ١٣٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ

﴿وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ١٧]، هل يوجد أحد منكم يستطيع أن يرد أمر الله إذا أراد أن يهلك عيسى عليه السلام وأمه، وهل يستطيعون أن يردوا أمره سبحانه إذا أراد أن يهلك جميع العباد!

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما في الأمطار، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كما في النبات، ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ يُعطي من يشاء صفة السمع ويمنعها ممن يشاء، ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾كإخراج الدجاجة من البيضة، ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ كإخراج البيضة من الدجاجة، هذه شجرة تموت وتلك بذرة تنبت فتكون شجرة، هذا حي وهذا ميت، ما الفرق بينهما وصفاتهما واحدة؟، من الذي يجعل هذا حيًّا ويجعل الآخر ميتًا؟ إنه رب العزة والجلال لأسباب قد لا تُعلم.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي: من الذي يتصرف في الكون؟ والمشركون يُقرون بأن الله هو الذي يفعل هذه الأمور، لكنهم يصرفون العبادة لغير الله، فيقول الله لهم: إذا كان الله هو المتصرف في الكون فحينئذٍ يكون هو المستحق للعبادة، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون، وأفلا تجعلون لأنفسكم وقاية تحميكم من العذاب الشديد. [يونس: ٣١].

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾. الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم الذي أعطاكم أصناف النعم، ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: المستحق للعبادة وحده، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. هذه المعبودات التي يخافها هؤلاء أعظم من خوفهم من الله، ويرجونها أكثر من رجائهم بالله، وهذه ضلال، ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، أي: كيف تُبعدون عن الحق إلى الباطل، وتتركون عبادة الله إلى عبادة غيره؟!. [يونس: ٣٢].

....

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي: هل يعقل أن أتخذ وليا يتولاني ويقوم بشئوني وأعتمد عليه غير الله، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾. [الأنعام: ١٤].

فإنه لا يوجد أحد يرزق غير الله، فهو سبحانه الذي يرزق العباد بأصناف المطاعم كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، وإذا كان قلبك قد اعتمد على غير الله فحينئذٍ جدد إيمانك وصحح نفسك.

من عقائد أهل السنة والجماعة: أن الصفات التي وردت في القرآن أو وردت في السنة مثبتة لله سبحانه نثبتها، وأن الصفات التي نفاها القرآن والسنة ننفيها، وأن ما سكت عنه القرآن والسنة نسكت عنه؛ لأن الله سبحانه أعظم من أذهاننا وعقولنا، وهو سبحانه أعلم بنفسه منا.

والله ليس بعاجز عن التعبير عن صفاته حتى نحتاج إلى من يأتي فيؤولها ويحرف معناها، وهو سبحانه لا يكذب في أخباره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

* * * * *

عَقِيدَةُ الإثبَاتِ وَالتَّنزِيه:

الإِثبَاتُ وَالتَّنزِيهُ:

٣٨) نُثبِتُ لَهُ تَعَالَى مَا أَثبَتَهُ لِنَفسِهِ، عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، مِن ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَسمَائِهِ، وَأَفعَالِهِ، وَنَنتَهِي عِندَ ذَلِكَ وَلَا نَزِيدُ عَلَيهِ، وَنُنَزِّهُهُ فِي ذَلِكَ عَن مُمَاثَلَةِ أَو مُشَابَهَةِ شَيءٍ مِن مَخلُوقَاتِهِ.

وَنُثبِتُ الاستِوَاءَ وَالنُّزُولَ وَنَحوَهُمَا، وَنُؤمِنُ بِحَقِيقَتِهِمَا عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ تَعَالَى بِلَا كَيفٍ، وَبِأَنَّ ظَاهِرَهَا المُتَعَارَفَ فِي حَقِّنَا غَيرُ مُرَادٍ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةً، مِنهُم خُبَيبٌ الأَنصَارِيُّ فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقتُلُوهُ قَالَ:

وَلَستُ أُبَالِي حِينَ أُقتَلُ مُسلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِن يَشَأ ... يُبَارِكُ عَلَى أَوصَالِ شَلوٍ مُمَزَّعِ

فَلَمَّا قُتِلَ هُوَ وَأَصحَابُهُ أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصحَابَهُ خَبَرَهُم يَومَ أُصِيبُوا) رَوَاهُ البُخَارِيُّ[(١)]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٥]، ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣-٧٤]، ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٩)، وأبو داود (٢٦٦٠)، وأحمد (٧٩٢٨).

الشرح:

قال المؤلف: «نُثبِتُ لَهُ تَعَالَى مَا أَثبَتَهُ لِنَفسِهِ، عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، مِن ذَاتِهِ» فلله ذات، وكذلك نثبت لله تعالى "صِفَاتِهِ، وَأَسمَائِهِ، وَأَفعَالِهِ، وَنَنتَهِي عِندَ ذَلِكَ وَلاَ نَزِيدُ عَلَيهِ، وَنُنَزِّهُهُ فِي ذَلِكَ عَن مُمَاثَلَةِ أَو مُشَابَهَةِ شَيءٍ مِن مَخلُوقَاتِهِ، وَنُثبِتُ الاستِوَاء" على العرش "وَالنُّزُولَ" كما في الحديث: **(إن الله** سبحانه **ينزل في الثلث الأخير من كل ليلة)**[1] وَنَحوَهُمَا.

قال المؤلف: «وَنُؤمِنُ بِحَقِيقَتِهِمَا -يعني: الاستواء والنزول- عَلَى مَا يَلِيق بِهِ تَعَالَى بِلاَ كَيفٍ»؛ لأن أذهاننا لا تتصور كيفية الصفات، فنثبت الاستواء لله سبحانه ونؤمن به، وأن له كيفية، ونؤمن بنزول الله، وأن له كيفية، لكن لا نعرف هذه الكيفية، وبالتالي نسكت عن الكيفية، وليست هذه الصفات مماثلة لصفاتنا؛ ولذلك فهو سبحانه وتعالى أعظم من تخيلاتنا، وكذلك نثبت لله نفسا، كما قال سبحانه: **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾** [آل عمران: ٢٨]، وكما قال: **﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾** [المائدة: ١١٦].

قال أبو هريرة: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةً، مِنهُم خُبَيبٌ الأَنصَارِيُّ فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقتُلُوهُ -يعني: ليقتلوا خبيبًا-، خبيب الأنصاري أرسله

---

(١) حديث النزول ورد من حديث جماعة من الصحابة، فقد ورد من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٤٤٦)، وابن ماجه (١٣٦٦)، ومالك (٥٧٠)، وأحمد (٧٥٠٩).

ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أحمد (٣٦٧٤)، وأبو يعلى (٥٣١٩).

ومن حديث عبادة رضي الله عنه أخرجه الآجري (ص: ٣١٢).

النبي ﷺ في سرية فتمكن منه المشركون فأخذوه وأتوا به إلى مكة، فباعوه على أسرة كان قد قتل واحدًا منهم، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوا خبيبًا، قَال خبيب:

وَلَستُ أُبَالِي حِينَ أُقتَلُ مُسلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِن يَشَأ ... يُبَارِكُ عَلَى أَوصَالِ شَلوٍ مُمَزَّعِ)

فقال: (وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ): فأثبت لله ذاتًا، وأثبت لله مشيئة (وَإِن يَشَأ) وأثبت أنه يبارك، والبركة من الله.

وقوله: (عَلَى أَوصَالِ) أي: أجزاء. (شلوٍ) أي: جسد. (مُمَزَّعِ) أي: مقطع؛ لأنهم سيقتلونه ويقطعوه، فَلَمَّا قُتِلَ هُوَ وَأَصحَابُهُ أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصحَابَهُ خَبَرَهُم يَومَ أُصِيبُوا.

و ما ينسب إلى الله سبحانه **على أنواع:**

النوع الأول: الأسماء، مثل: الرحمن، الرحيم، الله، فهذه الأسماء يجوز أن ندعوه فنقول: يا رحمن! اغفر لي، وليس هذا دعاء للاسم وإنما دعاء للمسمى، ويجوز أن نُعبد لهذه الأسماء، فنقول: عبد الله.

النوع الثاني: الصفات. مثل صفة الرحمة، هذه يجوز أن نتوسل إلى الله بها، ويجوز أن نصف الله بها، فتقول: أسألك يا ربي برحمتك، ولكن لا يجوز أن تدعوها، وأن تعبد بها، فتقول: أسأل رحمة الله، ولا تقول: عبد رحمة الله.

النوع الثالث: الأفعال. مثل: النزول والاستواء، وهذه أفعال ليست صفات ولا أسماء، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فإن المكر هو التدبير الخفي هنا، وهذا فعل وليس صفة، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]. هذا هو الصفة.

النوع الرابع: الأخبار التي يخبر الله بها عن نفسه.

إذن أربعة أشياء تنسب إلى الله سبحانه، الأسماء ويجوز أن نأخذ منها أفعالًا وصفات وأخبارًا، والصفات لا نأخذ منها أسماء حتى يأتينا دليل؛ ومن أمثلتها: قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. فإن (نور) صفة وليس اسمًا، فلا يصح أن تقول: عبد النور؛ لأن هذا ليس من أسماء الله؛ بل هي صفة له، في الحديث: **(حجابه النور)**[1]، هذا صفة، ولا يصح أن نأخذ من الصفات أسماء.

النوع الخامس: أفعال، نأخذ منها خبرًا ولا نأخذ منها اسمًا ولا صفة.

والنوع السادس: أخبار، لا نأخذ منها فعلًا ولا اسمًا ولا صفة، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فإن قوله ﴿شَيْءٍ﴾، خبر عن الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

فالله والرحمن من الأسماء التي نثبتها لله، وبالتالي ندعو الله بها ونعبِّد لها.

وهكذا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وكذلك يجوز التوسل إليه سبحانه بأسمائه، فنقول: بما أنك يا ربي رحمن فارحمني، فهذا توسل بالأسماء.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾. فالخلق والتسوية من أفعال الله ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٥]، وهذه أفعال

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٥٩)، وأحمد (١٩٥٣٠).

تنسب إلى الله، فعَّال لما يريد، هذا يسمى فعل، ويعاقب من يشاء، لا يصح أن تقول: هذا من أسماء الله: (معاقب)، وتسمي عبد المعاقب، ولا تقول: هذا من صفاته، وإنما تقول: هذا من أفعاله.

ومع إثباتنا للذات والأسماء والصفات لله بحسب ما ورد في النصوص؛ فإننا ننفي مماثلة صفات الله تعالى لصفات المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، فلا يجوز لأحد أن يظن أن الله مماثل للمخلوقات في الذات أو الصفات، فبالتالي لا يقاس الله على المخلوقات بقياس تمثيلي تستوي أفراده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣-٧٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ يعني: الشيطان. ﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٦٩]. ومن القول على الله بلا علم: أن تصفوا الله بما لم يرد في النصوص، أو تثبتوا له كيفية، أو تجعلوها مماثلة لصفات المخلوقين.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في صفاته، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

* * * * *

لاَ تحيطُ العُقُولُ بذَاته:

٣٩) وَلاَ تُحِيطُ العُقُولُ بِذَاتِهِ وَلاَ بِصِفَاتِهِ وَلاَ بِأَسمَائِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىۡءٍ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(لاَ أُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَى نَفسِكَ)**(١)، وَلِقَولِهِ ﷺ فِي دُعَاءِ الكَربِ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدُكَ بنُ عَبدِكَ بنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عَدلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسأَلُكَ بِكُلِّ اِسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو أَنزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَو عَلَّمتَهُ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، أَوِ اِستَأثَرتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيبِ عِندَكَ، أَن تَجعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلبِي، وَنُورَ صَدرِي، وَجَلَاءَ حُزنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي)**(٢).

الشرح:

مهما بلغت درجة العقل فإنه لم يتمكن أن يحيط بالعلم بذات الله سبحانه وتعالى، إذ لم تشاهد العقول ما يماثله سبحانه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾ [طه: ١١٠]، والإحاطة إدراك الشيء من جميع جهاته، ولله حكمة بالغة في ذلك، بأن يكون العباد يترقون في علمه بالله وصفاته، وهذا الخطاب عام يشمل الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، و قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىۡءٍ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يتمكن أحج من الاطلاع على شيء من علم الله إلا بما علمه الله عز وجل، وأطلعه عليه، ومن معناها: أنه لا يوجد أحد من

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٥)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي (١٦٩)، ومالك (٥٧١)، وأحمد (٢٥١٧٨).

(٢) مجهول، أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني (١٠٣٥٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩).

المخلوقات يتمكن من الإحاطة العلمية بالله وذاته وصفاته إلا بمقدار ما يطلعهم الله عليه.

قال النبي ﷺ: **(لاَ أُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَى نَفسِكَ)**"، أي: لا أطيق تمام الثناء عليك، ولا أبلغ ما تستحقه من الثناء، وذلك لأن العبد لا يحيط علما بالرب في ذاته وصفاته، وكذلك لا يستطيع عد نعم الله وإحسانه، ومن ثم فإنه لا يستطيع الثناء على الله بتلك النعم، وإنما القادر على الثناء على الله.

وفي دعاء الكرب، ومنه الهم والحزن: **(اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدُكَ بنُ عَبدِكَ بنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي** -أي: مقدم رأسي- **بِيَدِكَ** – أي: تتصرف في كيف شئت- **مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ** -أي: إذا حكمت علي بشيء من الأحكام الكونية فإنه لابد أن يقع- **عَدلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ** -لأن الله سبحانه لا يظلم أحدًا من العباد، إما أن يعدل أو يُحسن- **أَسأَلُكَ بِكُلِّ اِسمٍ هُوَ لَكَ** -فدَلَّ هذا على جواز التوسل إلى الله بأسمائه-، **سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو أَنزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَو عَلَّمتَهُ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، أَوِ اِستَأثَرتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيبِ عِندَكَ – أي: لا يعلمه أحد سواك–، أَن تَجعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلبِي، وَنُورَ صَدرِي، وَجَلاَءَ حُزنِي** -أي: مزيلا له-، **وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي)**.

* * * * *

الحَيَاةُ:

٤٠) فَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: الحَيَاةُ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

الشرح:

من صفات الله: الحياة، ومن أسماء الله: الحي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، وحياة الله سبحانه حياة كاملة؛ بحيث لا موت فيها ولا نوم، وذلك يقتضي إثبات كل كمال له سبحانه، فإن الحياة الكاملة تستلزم ذلك، بما يجمع صفات الذات كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والبقاء والدوام.

وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وقيوم يعني: أنه يقوم بنفسه، ومستغنيا عن غيره، ويقوم على المخلوقات فيدبرها، وبمعنى: أن العباد يقومون له، فهو سبحانه يستجيب دعاءهم، فاسم القيوم يجمع صفات الأفعال.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. توكل، يعني: فوض أمرك إلى الله واعتمد عليه سبحانه، ولا تعتمد على قوتك، لا تظن أن انتصارك بسبب قوتك، ولا تظن أن ما يأتيك من الرزق بسبب مهارتك، إنما هو من الله، وهذه المهارة سبب، وكم من إنسان أحسن منك في هذه المهارة ومع ذلك لم يُرزَق.

والتوكل عليه سبحانه متعلق بكونه حيا لا يموت، وقد كان من أدعية النبي ﷺ: **(أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

القُدرَةُ:

٤١- وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: القُدرَةُ عَلَى إِيجَادِ كُلِّ مُمكِنٍ وَإِعدَامِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور: ٤٥]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

الشرح:

ومن صفاته تعالى: القدرة: فهو سبحانه قادر على إيجاد كل شيء وإعدامه، وقول المؤلف: «عَلَى إِيجَادِ كُلِّ مُمكِنٍ». فيه نظر، فإنه سبحانه قادر على كل شيء، ومن ذلك قدرته على ما يستحيل لعدم آلته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور: ٤٥]. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

وليست القدرة منحصرة في الإيجاد والإعدام، قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقال: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ

﴿مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]، وقال عز شأنه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، وقال سبحانه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

* * * * *

الإِرَادَةُ:

٤٢) وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: الإِرَادَةُ وَالمَشِيئَةُ المُطلَقَةُ فِي جَمِيعِ المُمكِنَاتِ فَيُخَصِّصُ مَا شَاءَ بِمَا شَاءَ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

الشرح:

ومن صفات الله: الإرادة، وإرادة الله على نوعين:

النوع الأول: الإرادة الكونية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فهذا من إدارة المريد أن يفعل هو، ولا يتعلق به الأمر ولا المحبة ولا الرضا، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، وقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١]، وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

النوع الثاني: الإرادة الشرعية كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهذا النوع لا يتعلق إلا بالمحبوبات للشارع، فهو

....

متضمن للمحبة والرضا، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

إذن عندنا إرادتان، والإرادة الكونية ليست خاصة بالممكنات بل حتى بالمستحيلات؛ ولذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، فإن هذه إرادة كونية لا تتخلف، بينما الشرعية يمكن أن تتخلف.

والمشيئة الإلهية هي الإرادة الكونية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فهذه الآية فيها إثبات مشيئة العبد كما في قوله: ﴿تَشَآءُونَ﴾ وفيها إثبات مشيئة الخالق، كما في قوله تعالى: ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وفيها أن مشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الخالق ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. قال: كيف؟ قلنا: ومشيئتك تلاحظها بنفسك، فإنك قد ترغب في الشيء وقد لا ترغب فيه، وأما مشيئة الله فإننا نجدها في الكون، وارتباط مشيئتك بمشيئة الله ناتج من قدرة الله، وإن عجز ذهنك عن الربط بينهما فلا تجعل عجزك سببًا في اتهام الله بالعجز، فإن الله قادر على أن يصرفك كيف يشاء ويجعلك تختار ما يشاؤه سبحانه.

وليعلم بأن هناك فرقا بين الإرادة والرضا والمحبة، وكذلك الغضب والبغض، إذ فرق بين الشيء ونتيجته.

* * * * *

العِلمُ:

٤٣) وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: العِلمُ الَّذِي تَنكَشِفُ لَهُ جَمِيعُ المَعلُومَاتِ مِنَ الوَاجِبَاتِ وَالجَائِزَاتِ وَالمُستَحِيلاَتِ فَيَعلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيهِ مِنَ الحَالاَتِ؛ وَتَستَوِي عِندَهُ الجَلِيَّاتِ وَالخَفِيَّاتِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

الشرح:

من صفات الله: العلم، فهو عالم بالأشياء قبل وقوعها، وهو سبحانه له صفة علم أخرى للأشياء بعد وقوعها، وكذلك يعلم بالأشياء التي لم تقع، ويعلم لو وقعت كيف ستقع.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٢].

عندنا العلم الأول علم الأشياء قبل وقوعها، كما في قوله تعالى: قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. وعندنا علم لله بعد وقوع الوقائع، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]. هذا علم آخر، وكذلك يعلم بما لم يقع لو وقع كيف سيقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. يعني: أن هؤلاء الكفار الذين أُلقوا في النار تمنوا الرجوع للدنيا، قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، فهو يعلم أنهم لو ردوا إلى الدنيا لفعلوا الكفر والمعاصي.

ومثل ذلك قولـه تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧]. وهؤلاء المنافقون لم يخرجوا، ومع ذلك فإن الله يعلم لو أنهم خرجوا ما زادوكم إلا خبالا.

والله تعالى منزه عن الاتصاف بضد العلم بوجه من الوجوه، ومنزه عن زوال العلم، وعلم الله وسع كل شيء كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ومن ذلك علمه سبحانه بما في النفوس من خطرات ووساوس، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «نفي علم الله بالحوادث في أفعال العباد وغيرها، قبل أن تكون باطل...، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، ونحو ذلك، فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده، وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم، والثواب والعقاب، والأول هو العلم بأنه سيكون، ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم، ولا ثواب ولا عقاب؛ فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال...، وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجودا بعد أن كنا نعلم أنه سيكون»[١].

* * * * *

(١) مجموع الفتاوى (٨/٤٩٥).

السَّمعُ وَالبَصَرُ:

٤٤) وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: السَّمعُ الَّذِي تَنكَشِفُ بِهِ جَمِيعُ المَسمُوعَاتِ.

٤٥) وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: البَصَرُ الَّذِي تَنكَشِفُ بِهِ جَمِيعُ المُبصِرَاتِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، ولِحَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَونَا كَبَّرنَا، فَقَالَ: **(أَرِبعُوا عَلَى أَنفُسِكُم فَإِنَّكُم لاَ تَدعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، تَدعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا)**، رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١).

الشرح:

قال: «وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: السَّمعُ»، فهو يسمع ويُدرِك جَمِيع الأصوات والمَسمُوعَاتِ مهما خفتت، فهو يسمع السر والنجوى، والقريب والبعيد، فما من صوت إلا ويسمعه الله، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى علي بعضه)(٢)، فهو يسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٦)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) صحيح، أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وأحمد (٢٤١٩٥).

ومن صفة السمع أيضًا: أن الله يستجيب دعاء الداعين، فهو سميع الدعاء، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، لا تختلط عليه سبحانه الأصوات والدعوات على اختلاف اللغات وتنوع الحاجات.

ومن صفة السمع: حفظه للمؤمنين، كما قال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ومن صفاته تعالى: البصر، فهو -جل وعلا- يدرك المرئيات وجميع المخلوقات ببصره، فهو يبصر جميع الأشخاص والألوان، مهما ضعفت ألوانها أو بعدت أماكنها، لا تؤثر على رؤيته لها الحواجز والأستار، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]. ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

قال أبو موسى رضي الله عنه: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَونَا كَبَّرنَا ورَفَعنَا الصَّوت: اللهُ أكبر، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: **(أَرْبِعُوا عَلَى أَنفُسِكُم** -أي: خففوا وأشفقوا على أنفسكم بترك الصوت إبقاء لهم ورفقا بهم- **فَإِنَّكُم لاَ تَدعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، تَدعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا)**.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأثبت اسمي السميع والبصير مما يقتضي إثبات صفة السمع والبصر له سبحانه، وجعل

ذلك بعد نفي المثل عنه، ليبين أنه ليس المراد من نفي المثل نفي الصفات؛ بل المراد إثبات الصفات مع نفي مماثلتها لصفات المخلوقين، وقد عاب إبراهيم عليه السلام على أبيه عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وإثبات السمع والبصر لله تعالى يقتضي إثبات معنى زائد عن صفة العلم، وإثبات صفة السمع والبصر لله لا ينفي اتصاف المخلوق بصفة السمع والبصر مع عدم التماثل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ولكن هناك فرقاً، فبصر الله وسمعه محيط بجميع المسموعات والمرئيات، فهو سمع كامل، وبصر كامل، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وتقديم ضمير الفصل، ﴿هُوَ﴾ مشعر بانحصار السمع الكامل لله عز وجل، وإثبات السمع والبصر لله تعالى يجعل العبد يستشعر مراقبته سبحانه للعبد، وبالتالي يخافه ويرجوه، فيبتعد عن معصيته بالأقوال والأفعال.

* * * * *

الكَلاَمُ:

٤٦) وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: الكَلاَمُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى جَمِيعِ المَعلُومَاتِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

الشرح:

قال: **وَمِن صِفَاتِهِ تَعَالَى: «الكَلاَمُ، والمراد بالكلام: الأصوات والحروف، والله تعالى متصف بصفة الكلام»**، فهو يتكلم حقيقة، ولم يزل تعالى يتكلم متى شاء بصوت يسمع، وصفة الكلام صفة أزلية، وإن لم يكن الصوت المعين قديما، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكلام الله ليس هو المعاني النفسية، إنما كلام الله هو الأصوات والحروف؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فدل هذا على أن المسموع هو بعينه كلام الله.

وكذلك قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]. ما قال: معاني الكلام.

* * * * *

الوَحدَانيَّةُ:

٤٧) وَهُوَ الوَاحِدُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ: فَلاَ ثَانِيَ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلاَ ثَانِيَ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي أَسمَائِهِ، وَلاَ ثَانِيَ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ، وَلاَ ثَانِيَ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي أَفعَالِهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

الشرح:

قال: وَهُوَ الوَاحِدُ فِي ذَاتِه، فَلاَ ثَانِيَ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي ربوبيته، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي استحقاقه للألوهية والعبودية، وهكذا لا شريك له في أسمائه -أي: على جهة المماثلة- ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

كما أنه سبحانه واحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ﴾ أي: معبودكم، وقال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ

﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال لنبيه الكريم ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، وقال: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَاحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ولذا عاب الله على المشركين قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وكذلك لا يماثله أحد في استحقاقه للأسماء الحسنى، ولذا فهو واحد في أسمائه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وتقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص.

وكذلك لا يماثله أحد في صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والله سبحانه واحد في ربوبيته، يتصرف في الكون كيف يشاء، لا منازع له، ولا راد لأمره الكوني، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]، وقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا

رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٦-١٧]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٣-٦]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، فالله سبحانه وتعالى واحد في ذاته كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

ثم نقل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. بعض أهل العلم يقول: لو كان فيهما خالق، وهذا خطأ، فإن كلمة آلهة في لغة العرب معناها: معبودات. فالآية تقول: لو كان فيهما آلهة: معبودات بحق غير الله سبحانه لفسدتا(١).

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. لأن الألوهية -وهي العبادة- لا تكون إلا للخالق، فإذا جعلنا أشياء نعبدها مع الله كأننا نقول بأنها تخلق، لأنك لا تعبد إلا من تعتقد أنه ينفعك ويضرك، وأنه يتصرف في الكون، فلو كانت هذه المعبودات حقيقة للزم من ذلك أنها تتصرف في الكون ولأدى ذلك أن يعلو بعضهم

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٥٤/٣)، تفسير الطبري (٤٢٥/١٨)، زاد المسير (١٨٨/٣).

بعضًا؛ لأنه إذا وُجد شركاء متنافسون سيحاول بعضهم أن يغلب بعضهم الآخر، وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، أي: لا يوجد خالق إلا الله وحده، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]. هذا استفهام إنكاري، بمعنى أن الله ينكر أن يوجد آلهة لها أسماء على مثل أسماء الله سبحانه من جهة أصلها وذاتها وفروعها؟ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم أورد المؤلف سورة الصمد:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: أي أنه سبحانه واحد لا مثيل له ولا ند له.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: أي: الذي يتصدى لطلبات الخلق فيستجيب لهم، ويصمد الخلق إليه لرفع طلباتهم فيجيبها سبحانه. و﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فُسِّرَت بأنه الذي لا جوف له، كما فسرها ابن عباس وجماعة.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾: ليس له أولاد، فالأولاد صفة كمال بالنسبة لنا لأننا سنموت فتستمر الحياة معهم؛ لكن الحي الذي لا يموت لا يحتاج إلى أولاد؛ ولأننا عاجزون، فنحتاج إلى أولاد يقومون بشئوننا، لكن القادر لا يحتاج إلى ولد، ولا إلى معاون.

﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: أي: ليس له نظير يُماثله.

* * * * *

التَّوحِيدُ العِلمِيُّ وَالعَمَلِيُّ:

٤٨) التَّوحِيدُ هُوَ اعتِقَادُ وَحدَانِيَّةُ اللهِ، وَإِفرَادُهُ بِالعِبَادَةِ، وَالأَوَّلُ هُوَ التَّوحِيدُ العِلمِيُّ وَالثَّانِي هُوَ التَّوحِيدُ العَمَلِيُّ وَلاَ يَكُونُ المُسلِمُ مُسلِمًا إِلاَّ بِهِمَا، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] ، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

الشرح:

قال: "التَّوحِيدُ العِلمِيُّ وَالعَمَلِيُّ".

عرف المؤلف التوحيد بأنه: اعتقاد وحدانية الله وإفراده بالعبادة، وقسم التوحيد إلى قسمين، أحدهما: توحيد عملي، وتوحيد علمي.

فالتوحيد العلمي: بأن نعتقد أن الله متصرف في الكون وخالق له، والتوحيد العملي: بأن نصرف عباداتنا لله وحده، ولا يكون المسلم مسلمًا إلا بالاثنين.

وبعض أهل العلم يسميهما بأسماء أخرى، فمنهم من يقول: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وبعضهم يقول: توحيد علمي وتوحيد عملي، والمعنى واحد.

فإن قال قائل: هل لهذا التفريق أصل؟

نقول: نعم، هذا التفريق مأخوذ من استقراء النصوص، والتي دلت على وجود الاثنين معًا، فالتوحيد العلمي أقر به أهل مكة ومع ذلك لم يدخلهم في دين الله لعدم وجود التوحيد العملي.

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. هذا توحيد الربوبية، وهو: توحيد الله في أفعاله.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾. هذا توحيد الله في أعمالنا، وهو: التوحيد العملي، توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾. هذا توحيد الأسماء والصفات.

وسورة الصمد فيها التوحيد العلمي، بينما سورة (الكافرون) فيها التوحيد العملي: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. يعني: العبادة لله.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]. أي أن: طاعتكم تفارق طاعتنا، وطاعتنا لله وحده، وأنتم تطيعون الشياطين التي تأمركم بعبادة الأصنام.

* * * * *

توحيدُ الرُّبُوبِيَّةِ:

٤٩) وَمِن تَوحِيدِهِ تَعَالَى: تَوحِيدُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَهُوَ العِلمُ بِأَن لاَ خَالِقَ غَيرُهُ وَلاَ مُدَبِّرَ لِلكَونِ وَلَا مُتَصَرِّفَ فِيهِ سِوَاهُ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة:٥]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(لاَ مَانِعَ لِمَا أَعطَيتَ، وَلاَ مُعطِيَ لِمَا مَنَعتَ، وَلاَ يَنفَعُ ذَا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ)** رَوَاهُ الشَّيخَانِ.

الشرح:

قال: «وَمِن توحِيدِهِ تَعَالَى: تَوحِيدُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ العِلمُ بِأَن لاَ خَالِقَ غَيرُهُ وَلاَ مُدَبِّرَ لِلكَونِ وَلاَ مُتَصَرِّفَ فِيهِ سِوَاهُ».

قال تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: ٥].

تفرد الله عز وجل بخلق كل شيء كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢]، وكما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، ومن كان خالقا، فهو المستحق للعبادة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وانفراده بالخلق دليل على عدم جواز صرف العبادة لغيره، كما قال سبحانه: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقد كان مما خلقه الله عز وجل الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧-٥٩]، وهذه الآية كانت سببا في إسلام جبير بن مطعم.

وقدرة الله على الخلق ليست منحصرة في ما خلق؛ بل هو قادر على خلق ما يريد، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وفي خلقه دلالة على قدرته على البعث، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وكما قال: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وقال: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٩٩]،

وقال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقد أشار لبعض مخلوقاته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وقد تحدى الله البشر بأن يخلقوا ذبابا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وخلق هذا الخلق له غاية وليس من باب اللهو واللعب، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

والغاية من خلق الإنس والجن هي عبادته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن الإيمان بالله تعالى، الإيمان بأنه المدبر للكون، المتصرف فيه كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٤-٩].

ومن تصريفه لما في الكون توليه سبحانه أمر رزق العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وقال: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ

....

وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].

والعطاء بيده سبحانه كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وبالتالي فإن النفع والضر بيد الله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: ١١].

وقال ﷺ: **(لاَ مَانِعَ لِمَا أَعطَيتَ، وَلاَ مُعطِيَ لِمَا مَنَعتَ، وَلاَ يَنفَعُ ذَا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ)**. يعني: أن صاحب المكانة والمنزلة لا ينتفع بمنزلته ومكانته إذا أردتَ أن تُوقع به شيئًا من أقدارك وقضائك، وقع ولو كان غير مريد لذلك.

* * * * *

تَوحِيدُهُ فِي أُلُوهِيَّتِه:

٥٠) وَمِن تَوحِيدِهِ تَعَالَى: تَوحِيدُهُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَهُوَ العِلمُ بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ وَحدَهُ دُونَ سِوَاهُ وَالقَصدُ وَالتَّوجِيهُ وَالقِيَامُ بِالعِبَادَاتِ كُلِّهَا إِلَيهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وَلِقَولِهِ ﷺ: **(إِذَا سَأَلتَ فَاسأَلِ اللهَ، وإِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن بِاللهِ)** رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَغَيرُهُ.

الشرح:

ومن توحيد الله: توحيد الألوهية، وهو توحيد الله بأفعالنا نحن، فنعلم أن الله هو المستحق للعبادة، ولا نكتفي بالجانب العلمي؛ بل نوحده بأعمالنا، ونصرف العبادة لله وحده، وهُوَ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ وَحدَهُ دُونَ سِوَاهُ، وَالقَصدُ وَالتَّوجِيهُ وَالقِيَامُ بِالعِبَادَاتِ كُلِّهَا إِلَيهِ.

والعبادة حق لله وحده، لا يجوز أن يصرف منها لأحد سواه، ولذا قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد أحدا سواك، وهذا هو لب دعوات الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ

ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاس إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤].

وكان أنبياء الله يقولون لأقوامهم ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦].

وقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا﴾ أي: تاركًا للشرك منصرفًا إلى التوحيد. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. وهذا توحيد عملي.

قال ﷺ: **(إِذَا سَأَلتَ فَاسأَلِ اللهَ، وإِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن باللهِ)**. هذا توحيد ألوهية، وهو توحيد عملي.

* * * * *

استلزام:

٥١) ووَحدَانِيَّتُهُ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ تَستَلزِمُ وَحدَانِيَّتَهُ تَعالَى فِي أُلُوهِيَّتِهِ فالمُنفردُ بِالخَلق والرِّزق والعَطَاءِ والمَنعِ ودَفعِ الضَّرِّ وَجلبِ النَّفعِ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَن يُفرَدَ بِالعِبَادَةِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الخُضُوعِ وَالذُّلِّ مَعَ الفقرِ والحَاجَةِ لِلعَزِيزِ الغَنِيِّ القَادِرِ المُنعِمِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ولِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

الشرح:

قال: «وَوَحدَانِيَّتُهُ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ تَستَلزِمُ وَحدَانِيَّتَهُ تَعالَى فِي أُلُوهِيَّتِهِ».

إذا كان الله هو الخالق المتصرف في الكون الذي يرزق من يشاء؛ فذلك يستلزم أن تكون العبادة كلها لله وحده، وأن يكون الخوف من الله وحده، أن يكون الرجاء لله وحده، أن تكون الصلاة لله وحده؛ لأنه هو المنفرد بالخلق والرزق والعطاء والمنع ودفع الضر وجَلْب النفع.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاس ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، فهذا أمر بالعبادة، وهو توحيد عملي، أي: توحيد ألوهية، أو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾؛ أي: لأنه خلقكم فاعبدوه، وخلق ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا﴾. كل هذه الأمور من توحيد الربوبية تدل على توحيد الألوهية، ولذا قال بعدها: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾. لماذا سلَّم عليهم؟؛ لأنهم نزهوا الله من أن يكون له شركاء يعبدون مع الله.

وقال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. أيهما خير، هذه الأصنام التي يعبدونها أم الله الذي له توحدي الربوبية كما في قوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾. أليس الله الذي خلق السموات والأرض؟ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾أي: منظر حسن ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَـٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾. كيف تجعلون آلهة أخرى تعبدونها من دون الله والله هو المنفرد بالخَلْق؟

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾: أي: مستقرة لا تميد. ﴿وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنۡهَـٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبال. ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾. البحر المالح والبحر الحلو بينهما حاجز، من الذي أوجد هذا الحاجز؟ هو الله، وإذا كان الله هو المتصرف في الكون؛ فحينئذٍ لابد من إفراده بالعبادة، ولا نجعل معه آلهة أخرى ﴿أَءِلَـٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، لأنه الذي فعل هذه الأمور وحده. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾. من هو الذي إذا اضطر العباد توجهوا إليه بالدعاء، فأجاب دعاءهم؟ ويكشف السوء عنهم؟ أي: تأتيكم الحوادث العظيمة التي تتوقعون معها السوء العظيم، ثم بعد ذلك يكشفه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تأتون بعد زوال من سبقكم في هذه الأرض ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾. الذي فعل هذه الأمور تجعلون معه آلهة أندادا له سبحانه ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. من الذي هيأ لكم هذه العقول التي صنعتم بها المواصلات وصنعتم بها أجهزة الدلالة، من الذي هيأ لكم عقولًا تصنع بها هذه الأمور؟ هو رب العزة والجلال، فهو الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر.

ومن الذي يرسل الريح وينزل الأمطار؟ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تَرَفَّع سبحانه وتنَزَّه عن طريقتهم في صرف العبادة لغيره.

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾. يخلقكم أول مرة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: يخلقكم مرة أخرى يوم القيامة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾. إن كنتم تزعمون أن هناك آلهة تعبد مع الله ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: أعطونا الدليل. [النحل: ٥٩-٦٥].

وقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل، فيها استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ فإن الخالق المدبر الرازق المتصرف في الكون، هو المستحق لأن يعبد وحده، وأن تقدم طاعته على طاعة من سواه، ومن نماذج الآيات في ذلك، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَار وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاس ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، وقال عز وتقدس: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٠-٦٨]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وقال على لسان الرجل الصالح: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٢-٢٤]، وقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣-٤].

وفي المقابل استدل سبحانه على بطلان عبودية من سواه بكونهم لا يتصرفون في الكون، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

* * * * *

تَوحِيدُهُ فِي شَرعِهِ:

٥٢) وَمِن تَوحِيدِهِ تَعَالَى: تَوحِيدُهُ فِي شَرعِهِ فَلاَ حَاكِمَ وَلاَ مُحَلِّلَ وَلاَ مُحَرِّمَ سِوَاهُ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

الشرح:

من توحيد الله تعالى: توحيده في شرعه، فلا نبتدع أحكامًا جديدة، ولا نجعل حاكمًا إلا الله، ولا نجعل أحدًا يحلل أو يحرم إلا الله، والعلماء مُبيِّنون، والأنبياء مُبلِّغون، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فلا يقبل قول من قال: هذه مصلحة للعباد، فأُوجبها عليهم بذهني، ونقول له: أخطأت، وهكذا من قال هذا الفعل فيه مَضَرَّة، وبالتالي هذا الفعل حرام، فلا نقبل منه ذلك لأن هذا تشريع للأحكام من دون الله.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فإنه سبحانه كما انفرد بخلق المخلوقات، فهو انفرد أيضًا بالأمر الشرعي، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾،

وبالتالي فلا حاكم إلا الله، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، أي: في نسبة أحكام إلى شرع الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

ومن شأن أهل الجاهلية أنهم حرموا أشياء من عند أنفسهم، فعابهم الله، قال جل شأنه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾. قالوا هذا حلال وهذا حرام، ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾؛ حيث جعلوا أشياء شرائع وعبادات ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فسمى الله تعالى هؤلاء شركاء.

وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ فإن الحكم فيه إلى الله وحده، كما قال سبحانه: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

ومما يقرر هذا المبدأ قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، وقال:

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

فإن قال قائل: بأنه تم إسناد الحكم لبعض العباد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

فالجواب: أن المراد تطبيق الأحكام واستخراجها، وليس المراد إنشاء الأحكام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

* * * * *

لاَ يَخلُقُ العَبدُ أفعَالَ نفسه:

٥٣) وَمِن تَوحِيدِهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ: اعتِقَادُ أَنَّ العَبدَ لاَ يَخلُقُ أَفعَالَ نَفسِهِ، فَهُوَ مَا لَم يَخلُق ذَاتَهُ وَلَم يَخلُق صِفَاتَ ذَاتِهِ، كَذَلِكَ لَم يَخلُق أَفعَالَهُ، فَهُوَ كُلُّهُ مَخلُوقٌ لِلَّهِ ذَاتُهُ وَصِفَاتُهُ وَأَفعَالُهُ، غَيرَ أَنَّهُ لَهُ مُبَاشَرَةً لِأَفعَالِهِ بِاختِيَارِهِ فَبِذَلِكَ كَانَت أَعمَالًا لَهُ وَكَانَ مَسؤُلًا عَنهَا وَمُجَازًى عَلَيهَا وَتِلكَ المُبَاشَرَةِ هِيَ كَسبُهُ وَاكتِسَابُهُ، فَيُسَمَّى العَبدُ عَامِلًا وَكَاسِبًا وَمُكتَسِبًا وَلَا يُسَمَّى خَالِقًا، لِعُمُومِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣]، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

الشرح:

ومن توحيد الله في ربوبيته: اعتقاد أن العبد لا يخلق فعل نفسه، فإن أفعالنا التي نفعلها فيها جانبان:

الأول: أنها فعل، فهي منسوبة لنا.

الثاني: أنها مخلوقة، فهي خلق لله.

ولابد من إثبات الأمرين، خلق الله؛ لأن الله خالق كل شيء ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. لكنها فعل لنا لأن الله سبحانه قد نسبها إلينا فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]. وقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٣]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ

مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إذن، هي من فعل العبد لكنها من خلق الله، ويسمى العبد فاعلاً وعاملاً وكاسبًا، لكن ما يُسَمَّى خالقًا، وبذلك نَرُدُّ على المعتزلة الذين يقولون العبد يخلق فعله، ونرد على الأشاعرة الذين يقولون بأن الأفعال هذه تنسب إلى الله فهي فعل الله، فنقول: هذا غلط شنيع، وإلا لزم عليه أن تكون معاصي العباد كالزنا فعل الله؟! ونعوذ بالله من هذه المقالة؛ بل نقول: هي خَلْقُ الله، لكنه فعل العبد.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧]، وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٠-١١٢].

* * * * *

للعبد اختيار:

٥٤) وَمِن تَوحِيدِهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ: اعتِقَادُ أَنَّ العَبدَ لاَ يَخرُجُ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهِ عَن مَّشِيئَةِ اللَّهِ، غَيرَ أَنَّ لَهُ اختِيَارًا يَجِدُهُ بِالضَّرُورَةِ مِن نَّفسِهِ، وَمَشِيئَةٍ يَجِدُهَا كَذَلِكَ فِيمَا يُمَكِّنُهُ مِن أَفعَالِهِ كَانَ بِهِمَا مُكَلَّفًا، ثُمَّ هُوَ لاَ يَخرُجُ بِهَا عَن مَّشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

الشرح:

من توحيد الله في ربوبيته: اعتقاد أن العبد في جميع تصرفاته لا يخرج عن مشيئة الله، فمشيئة الله نافذة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

لا يمكن لأحد أن يَدخُلَ في دين الإسلام إلا أن يشاء الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ولا يهتدي أحد إلا أن يشاء الله، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

والمعاصي شاءها الله وقدَّرها لِحِكَمٍ أعلى، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ومن ذلك خَلقُ إبليس، فإن الذي خلقه هو الله، وأفعال الله ليست شرًّا محضًا، بل هناك مصالح وعبادات أخرى تحصل من خلق إبليس، فمن ذلك: معصية إبليس، فمعصية إبليس طاعة لله، ومقاتلة أولياء الشيطان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي تحصل به الأجور المضاعفة، ناتج من خلق إبليس، فالله سبحانه لم يخلق شرًّا محضًا، وإنما خلق الشر بالجزء والنسبة لَمحَلٍّ مُعَيَّن، لكنه ليس شرًّا من جميع الوجوه، وحينئذٍ نحن نثبت لله مشيئة غالبة ونثبت مشيئة العبد، ونثبت ارتباط مشيئة العبد بمشيئة الله.

وقد أثبت الله عز وجل للعبد مشيئة كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٩]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦].

وأثبت سبحانه لنفسه مشيئة كما سبق، وربط مشيئة العبد بمشيئة الرب سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

* * * * *

عِلمُ الغَيبِ عِندَ اللّهِ:

٥٥) وَمِن تَوحِيدِهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ: اعتِقَادُ أَنَّ العَبدَ لاَ يَعلَمُ الغَيبَ وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الحَوَاسِّ، وَلاَ يُوصَلُ إِلَيهِ بِصَحِيحِ النَّظَرِ، فَلَا يَعلَمُ مِنهُ إِلاَّ مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الخَبَرِ، فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ حِينَئِذٍ كَمَا جَاءَ بِدُون زِيَادَةٍ وَلاَ تَنقِيصٍ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

الشرح:

من توحيد الربوبية: أن نعتقد أنه لا يعلم أحد الغيب إلا الله، ومن هنا فالكهنة لا يعلمون الغيب، والخَرَّاصُون لا يعلمون الغيب، والسحرة لا يعلمون الغيب.

قال الله -جل وعلا-: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى للملائكة: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]،

وقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

وقال جل جلاله عن نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وإذا كان هذا في رسول الله ﷺ فكيف بغيره؟

وقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]. ولذلك فعلم الله محيط بالمعلومات كلها، حاضرها وغائبها.

ومن الواجب أن نؤمن إيمانا جازما صادقا، بما أخبر الله به من الغيبيات، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣].

* * * * *

الإيمَانُ بِالقَدَرِ:

القَدَرُ:

٥٦) القَدَرُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الإِحَاطَةُ بِمِقدَارِ الشَّيءِ، تَقُولُ: قَدَّرتُ الشَّيءَ أُقَدِّرُهُ قَدرًا إِذَا أَحطتَ بِمِقدَارِه.

وَقَدَرُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ تَعَلُّقُ عِلمِهِ وَإِرَادَتِهِ أَزَلاً بِالكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبلَ وُجُودِهَا، فَلاَ حَادِثَ إِلاَّ وَقَد قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَي سَبَقَ بِهِ عِلمُهُ وَتَقَدَّمَت بِهِ إِرَادَتُهُ، فَكُلُّ حَادِثٍ فَهُوَ عَلَى وِفقِ مَا سَبَقَ بِهِ عِلمُ اللَّهِ وَمَضَت بِهِ إِرَادَتُهُ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وَلِقَولِهِ فِي حَدِيثِ سُؤَال جِبرِيلَ عليه السلام: **(وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، حُلوِهِ وَمُرِّهِ)**.

القَدَرُ مَكتُوبٌ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ:

٥٧) وَكَمَا سَبَقَ قَدَرُ اللَّهِ لِلأَشيَاءِ قَبلَ أَن يَّخلُقَهَا كَذَلِكَ كَتَبَهَا فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ قَبلَ خَلقِهَا؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، وَلِحَدِيثِ عَبدِ الله ابنِ عَمرو بن العَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: **(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبلَ أَن يَّخلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ وَعَرشُهُ عَلَى المَاءِ)** رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

الشرح:

من أركان الإيمان: الإيمان بالقضاء والقدر، فنؤمن بأن الله سبحانه قدَّر الكائنات قبل وقوعها.

والإيمان بالقضاء والقدر على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله لجميع المخلوقات وما سيَحصُلُ، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦)، وأحمد (٦٥٧٩).

والمرتبة الثانية: الكتابة. فكل شيء قد سُجِّل، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وحينئذ نفرق بين المشيئة والمحبة، فالله شاء كل ما وقع في الكون، بما فيها المعاصي والذنوب، وإن كان لا يحبها، ولا يرضاها.

والمرتبة الثالثة: أن نعتقد أن جميع ما يقع بمَشيئَةِ الله.

والمرتبة الرابعة: أن نعتقد أن جميع ما يَحصُلُ هو مِن خَلْقِ الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ومن أركان الإيمان: أن تؤمن بالقدر خيره وشره، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقال النبي ﷺ: **(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَن يَّخلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ وَعَرشُهُ عَلَى المَاء)**(١).

قد يقول قائل: لماذا إذن تنكرون عليَّ فعل المعصية والذنب مادامت بعلم الله وقد كتبه الله وقدَّره وشاءه وخلقه؟

قلنا: أنت لا تستدل بالقدر في أمورك، فكيف تستدل بالقدر في عبادتك؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

لو جاء إنسان لهذا الشخص وضربه على وجهه وأخذ ماله، فقال: لماذا هذا؟ فقال الضارب: هذا قدر الله عليك أن آخذ مالك، فليس لك حق الاعتراض، فحينئذ لن يرضى بذلك، فنقول له: لماذا هناك ارتضيت الاعتذار بالقضاء والقدر وهنا لم ترتضِ؟!

والقضاء مُغيب عنَّا، ولذلك كل إنسان يعمل وهو ميسر لِمَا قُدِّر له، إذن علينا أن نعمل بشرع الله، وحينئذٍ علينا أن نعرف أننا نُطالب بعمل الأسباب.

ولو أن شخصا قال: أنا أريد أولادًا بدون أن أتزوج، وإن كان الله قدَّر لي أولادًا فسيأتيني!

نقول: أخطأت، فالله سبحانه قد جعل لهذه الأمور أسبابًا، وليس من العقل في شيء ولا من الدِّيَانَةِ في شيء أن تطلب الأثر بدون أن يوجد السبب، وهنا مسألة وقع الاختلاف فيها كثيرا، وهي: هل هذه الأسباب مُؤَثِّرة؟

الجواب أن نقول: نَعَم مُؤَثِّرة، ولكن لا تؤثر بنفسها وإنما بجعل الله لها.

فلو أنك ضربت شخصا، فأحسَّ بالألم، فنقول: هل يدك لها تأثير في وجود الألم؟ نقول: نعم، اليد لها تأثير؛ لكن ليس التأثير لذات اليد، وإنما خلق الله سبحانه، وبالتالي نعلم خطأ من يقول بأن السبب مؤثر بنفسه، ونعلم خطأ من يقول بأن السبب لا تأثير له.

فلو أتَينَا بالسِّكِّين وذبحنا الذبيحة، حينئذٍ هل موت الذَّبيحة هو بسبب السكين لذاتها؟

نقول: السِّكين مؤثرة، والموت جاء بأثر من السكين؛ لكن تأثير السكين بأمر الله سبحانه وقدره.

* * * * *

العَمَلُ بِالشَّرعِ وَالجِدِّ فِي السَّعيِ مَعَ الإِيمَانِ بِالقَدَرِ:

كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ:

٥٨) الشَّرعُ مَعلُومٌ لَنَا، وَضَعَهُ اللَّهُ لِنُسَيِّرَ عَلَيهِ أَعمالَنَا، وَالقَدَرُ مَغِيبٌ عَنَّا، أَمَرَنَا اللَّهُ بِالإِيمَانِ بِهِ لأَنَّهُ مِن مُقتَضَى كَمَالُ العِلمِ وَالإِرَادَةِ مِن صِفَاتِ رَبِّنَا.

فَالقَدَرُ فِي دَائِرَةِ الاعتِقَادِ، وَالشَّرعُ فِي دَائِرَةِ العَمَلِ، وَعَلَينَا أَن نَّعمَلَ بِشَرعِ اللَّهِ وَنَتَوَسَّلَ إِلَى المُسَبَّبَاتِ المَشرُوعَةِ بِأَسبَابِهَا، وَنُؤمِنُ بِسَبقِ قَدرِ اللَّهِ تَعَالَى فَلا يَكُونُ إِلاَّ مَا قَدَّرَهُ مِنهَا، فَمَن سَبَقَت لَهُ السَّعَادَةُ يُسِّرَ لأَسبَابِهَا، وَمَن سَبَقَت لَهُ الشَّقَاوَةُ يُسِّرَ لأَسبَابِهَا؛ لِحَدِيثِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ قَالَ: (كُنَّا فِي جَنَازَةٍ، فِي بَقِيعِ الغَرقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ مِخصَرَةٌ، فَنَكَسَ، فَجَعَلَ يَنكُتُ بِمِخصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ: **(مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ، مَا مِن نَفسٍ مَنفُوسَةٍ إِلاَّ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلاَّ كُتِبَت شَقِيَّةً أَو سَعِيدَةً)**. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ، فَمَن كَانَ مِنَّا مِن أَهلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى السَّعَادَةِ، وَمَن كَانَ مِن أَهلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى الشَّقَاوَةِ؟ فَقَالَ: **(اعمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ: أَمَّا أَهلُ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهلُ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهلِ الشَّقَاوَةِ)**، ثُمَّ قَرَأَ قَولَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]، رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ)[1]؛ وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(المُؤمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيرٌ. احرِص عَلَى مَا يَنفَعُكَ، وَاستَعِن بِاللَّهِ وَلاَ تَعجَز. وَإِن أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُل: لَو أَنِّي فَعَلتُ.. كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِن قُل: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ)**. رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٨٧٩١).

الشرح:

يعلم المؤمن بأنه لا يوجد تعارض بين فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، وكذلك يعلم بأن ما يفعله الإنسان من الأسباب جزء من القدر وليس معارضا له، فيقدر الله لفلان فعل السبب بالزواج، ثم قد يقدر له إنجاب الزوجة وقد لا يقدر له ذلك، وزواجه لم يخرج عن القضاء والقدر، ولذا قال في حديث علي: "كُنَّا فِي جَنَازَةٍ، فِي بَقِيعِ الغَرقَدِ -وهي منطقة في المدينة- فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ مِخصَرَةٌ -المخصرة: العود الرقيق أو العصا الخفيفة يستعملها، وقوله: فَنَكَسَ -أي: ضرب بها الأرض- فَجَعَلَ يَنكُتُ بِمِخصَرَتِهِ -أي يضرب بها في الأرض- ثُمَّ قَالَ: **(مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ، مَا مِن نَفسٍ مَنفُوسَةٍ إلاَّ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلاَّ كُتِبَت شَقِيَّةً أَو سَعِيدَةً)**. قالوا: يا رسول الله، لماذا العمل؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فقَال النبي ﷺ: **(اعمَلُوا -ابذلوا السبب- فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ -أي لعمل مقدر له-: أَمَّا أَهلُ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهلُ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهلِ الشَّقَاوَةِ)**، ويَدُل عليه قَولَ اللَّهِ سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

فلاحظ أن الإعطاء والتقوى والتصديق أسباب من فعل ابن آدم وهكذا ما كان بضدها.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ: **(المُؤمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعِيفِ)**.

لماذا كان المؤمن القوي خيراً وأحب إلى الله ؛ لأن عنده أسبابًا ، فدل هذا على أن الأسباب مؤثرة وإن كانت لا تؤثر بنفسها ، وإنما بجعل الله لها كذلك.

وقوله : **(وَفِي كُلٍّ خَيرٌ. احرِص عَلَى مَا يَنفَعُكَ** -أي من بَذْل الأسبَاب- **وَاستَعِن بِاللَّهِ)**.

إذن لابد من الأمرين معا : عون الله وفعل السبب ، ولذلك قال : **(احرص على ما ينفعك)** وفي الوقت نفسه **(واستعن بالله وَلاَ تَعجَز)**. فإذا فاتك شيء بعد ذلك فلا تقل : لَو أَنِّي فَعَلتُ كذا ؛ بحيث تتأسى وتتحسر على ما مضى ، مما لم يُقدره الله لك وقد يكون الخير في عدم تقدير الله لك. قال : **(وَلَكِن قُل : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ لَو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ)**.

و(لو) على نوعين : (لو) على جهة التحسر على ما فاتك من القضاء ، فهذه مذمومة ، و(لو) التي للحَثِّ كما لو قلت ، لو تفعل كذا ، فهذه ليست مذمومة.

ومن أمثلة الأولى ، قوله تعالى : **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾** [آل عمران : ١٥٦] .

ومثال الثاني ، قوله تعالى : **﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾** [المائدة : ٨١] ، وقوله : **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾** [النساء : ٨٢].

ومثله ما ورد بصيغة الخبر ، كقوله : **﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾** [الإسراء : ٤٢] ، وقوله : **﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾** [الكهف : ١٠٩].

* * * * *

الاحتجَاجُ بِالقَدَرِ

لاَ يُحتَجُّ بِالقَدَرِ فِي الذُّنُوبِ:

٥٩) لاَ يُحتَجُّ بِالقَدَرِ فِي الذُّنُوبِ لأَنَّ حُجَّةَ اللَّهِ قَائِمَةٌ عَلَى الخَلْقِ بِالتَّمَكُّنِ وَالاختِيَارِ وَالدَّلاَلَةِ الفِطرِيَّةِ وَالدَّلاَلَةِ الشَّرعِيَّةِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

الشرح:

القدر لا يصح أن تحتج به في فعل الذنوب؛ لأن الله قد أرسل الرسل وأقام الحجة؛ ولأن العبد عنده قُدرة على الاختيار والمقارنة بين المعاصي والطاعات.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، وهذا منهم احتجاج بالقدر، وقدح رَدَّ الله عليهم: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]. أي أن هذه مجرد تخرصات، فإن عندكم قدرة ولكم اختيار فالحُجَّة قد قامت عليكم، وقد بين الله سبحانه أن الأمم السابقة احتجوا بمثل هذه الحجة لكنها لم تنفعهم ونزلت بهم العقوبات.

واحتجاج هؤلاء بالقدر ليس لغاية محمودة كتعظيم الله، وإنما لقصد فاسد وهو معارضة الأمر ودفع الشرع، ولذا قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهذا دليل على أن الاحتجاج بالقدر على الشرك والذنوب غير مقبول، وأن الأمم السابقة احتجوا بالقدر، فلم يغن عنهم من عذاب الله شيئا، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

الحذَرُ والقَدَرُ:

وُجُوبُ الحذَرِ:

٦٠) مَعَ الإيمَانِ بِالقَدَرِ يَجِبُ الأَخذَ بِالحذَرِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢].

الحِكمَةُ والعَدلُ فِي القَدَرِ:

القَدَرُ كُلُّهُ عَدلٌ:

٦١) القَدَرُ كُلُّهُ عَدلٌ وَحِكمَةٌ، فَمَا يُصِيبُ العِبَادَ فَهُوَ جَزَاءُ أَعمَالِهِم، وَقَد تُدرَكُ حِكمَةُ القَدَرِ وَلَو بَعدَ حِينٍ، لأَنَّ مِن أَسمَائِهِ تَعَالَى: الحَكِيمُ، وَرَدَ فِي الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الكَثِيرَةِ.

وَمِن أَسمَائِهِ تَعَالَى: العَدلُ، وَرَدَ فِي حَدِيثِ الأَسمَاءِ عِندَ التِّرمِذِي؛ لِقَولِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الكَربِ: **(عَدلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ)**[1]، ولِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

الشرح:

لابد أن نؤمن بالقضاء والقدر ولا بد أن نفعل السبب، ومن ذلك الحذر من الأقدار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢].

وما قدره الله سبحانه كله عدل وحكمة، فإن ما أصابنا من المصائب إنما كان بسبب ذنوبنا وتقصيرنا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) ضعيف، أخرجه أحمد (٣٧١٢).

وإصابة الإنسان بالمصائب ليست دليلا على نقصان حاله، وإما أراد الله أن يخفف ذنوبه، وأن يرفع درجته، ولذا قال النبي ﷺ: **(أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)**(١).

ونقول: ما من عبد إلا وعنده تقصير؛ لأن نعم الله أكثر من عمل العبد، فعنده سمع وبصر وجوارح، وكذلك عنده تقصير، فالأنبياء ينزل الله بهم البلاء من أجل أن يرفع درجتهم ويخفف من أثر أفعالهم، ولذلك قال الله سبحانه لنبيه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال الله سبحانه للصحابة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. إذن الله عادل لا ينزل بأحد عقوبة في الدنيا إلا بسبب عمله وتقصيره، ولكن نزول البلاء بالعبد لا يعني نقصان درجته بل قد يكون أرفع؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **(من يرد الله به خيرًا يُصب منه)**(٢). وقال: **(أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)**(٣).

وقال للنبي ﷺ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والمؤمن يتلقى المصائب بعبادتين:

أولاهما: الصبر، ولذا قال هنا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والعبادة الثانية: عبادة الرضا والتسليم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والطبري في (مسند ابن عباس) (٤٢١)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٩٧٧٤) بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

(٣) سبق تخريجه.

الإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ وبكتاب الله تعالى:

المَلائِكَةُ:

٦٢) المَلَائِكَةُ مَخلُوقُونَ مِنَ النُّورِ، لاَ يُوصَفُونَ بِذُكُورَةٍ وَلا بِأُنوثَةٍ، مُيَسَّرُونَ لِلطَّاعَاتِ، مَعصُومُونَ مِنَ المَعَاصِي مُسَخَّرُونَ بِإذنِ اللَّهِ فِي شُئُونِ الخَلقِ وَتَدبِيرِ الكَونِ، وَحِفظِ العِبَادِ، وَكِتَابَةِ أَعمَالِهِم، أُمَنَاءُ عَلَى الوَحيِ فِي حِفظِهِ وَتَبلِيغِهِ؛ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِن نُورٍ وَخُلِقَ الجَانُّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم)** رَوَاهُ مُسلِمٌ[١]؛ وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]، وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧-٢٨]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، وقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، وقوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، وقوله:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٢٥١٩٤).

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥-٦]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

الشرح:

كذلك نُؤمن بالملائكة، فهم عباد مخلوقون من نور، المشركون قالوا: هم إناث، فرد الله عليهم، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

ففي هذا نفي أن تكون الملائكة أولادا لله تعالى؛ بل هم من خلقه، فينزه سبحانه عن ذلك، فإن الملائكة عباد لله مكرمون في منازل رفيعة، ومقامات سامية، لا يتقدمون بين يديه بأمر من عند أنفسهم، ولا يخالفون أمره؛ بل يبادرون لطاعة ربهم، ومن صفاتهم خوفهم من الله المبني على علم بصفاته سبحانه.

عصمهم الله سبحانه من المعاصي، ويسرهم للطاعة، يؤدون أوامر الله، يحفظ الله بهم العباد، يقول النبي ﷺ: **(خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِن نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم)**.

وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال في وصفهم: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا يترفعون. ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. أي: لا يسأمون. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. لا يتوقَّفُون.

وقال على لسانهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾، أي: يصفون في العبادة أي: أن الملائكة يكثرون من التسبيح، أي: ينزهون الله عن النقائص، وما يظنه به المشركون من ظن السوء.

وقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧-٢٨]. فهم عباد من عباد الله. ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وفي هذا إثبات صفة العلو لله، وفيه إثبات أن الملائكة يخافون من ربهم، وأنهم لا يعصون أمره.

وقد ذكر الله سبحانه أعمالهم، وذكر أنهم ينقسمون بحسب الأعمال، فهناك ملائكة لتدبير الأمور، وهناك ملائكة لحفظ المؤمنين، وهناك ملائكة يكتبون ويُسَجِّلون الأقوال والأعمال، وهناك ملائكة قد وكِّلوا بحفظ القرآن.

وكما أننا نؤمن بالملائكة إجمالا، فنحن كذلك نؤمن بمن سَمَّى الله من الملائكة من جبريل وميكائيل، ونؤمن بما وردنا من أعمالهم. ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فمن الأعمال التي وُكل عليها بعض الملائكة:

١) ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، أي: الملائكة الذين ينزلون بأوامر الله الكونية، ومن ذلك تقسيم رزق الله، وتقسيم الحظوظ، وهي كذلك ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، أي: تنزل بأمر الله بتدبير الأمور وتصريفها.

٢) ومن ذلك حفظ عباد الله كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، أي يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

٣) ومن أعمال الملائكة تسجيل أقوال الناس وأفعالهم كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

٤) ومن أعمالهم حفظ القرآن العظيم كما في قوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، أي: محفوظ لا يمسه.

٥) ومن أعمالهم النزول بالوحي من عند الله تعالى لأنبيائه كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ٥]، الملائكة تنزل بأمر من الله على الرسل بدعوة الحق والهدى، لإقامة الحجة على الباطل وإبطال اعتذاراتهم ولإنذارهم من العقوبات الدنيوية والأخروية، وكذلك قال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، أي: يختار من الملائكة رسلا، ومن الناس، أي: يبلغون شرعه ودينه.

وهناك أعمال أخرى لطوائف من الملائكة، ومنها:

١) الموكلون بقبض الأرواح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، ولهم

قائد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

٢) ومنهم جبريل الموكل بإنزال الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

٣) ومنهم من يوكل بالأمطار.

٤) ومنهم من يوكل بالنفخ في الصور.

٥) ومنهم خزنة الجنة، وفي مقدمتهم رضوان، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

٦) ومنهم المبشرون عند الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

٧) ومنهم خزنة جهنم، مالك وأعوانه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

٨) ومنهم حملة العرش، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

٩) ومنهم السياحون الذين يتبعون مجالس الذكر.

١٠) ومنهم الموكل بالجبال.

وهذه نماذج لأعمالهم.

* * * * *

الإِيمَانُ بِكُتُبِ اللهِ تعَالَى:

٦٣) نُؤمِنُ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ المُنَزَّلَةِ عَلَى رُسُلِهِ -عَلَيهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فَمِنهَا التَّورَاةُ وَالإِنجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالقُرآنُ، وَمِنهَا غَيرُهَا مِمَّا لَم نَعلَمهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفصِيلِ فَكُلُّهَا مِن عِندِ اللَّهِ وَكُلُّ مَا فِيهَا حَقٌّ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

الشرح:

ومن أركان الإيمان أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله تعالى، والإيمان بها على نوعين:

النوع الأول: إيمان إجمالي: فنؤمن أن لله كتبا أنزلها لهداية البشر، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

النوع الثاني: الإيمان التفصيلي: بأن نؤمن بأسماء الكتب التي سماها الله تعالى، فنؤمن بالقرآن وبالإنجيل والتوراة وصحف إبراهيم وموسى وزبور داود.

ومعنى الإيمان بهذه الكتب، التصديق الجازم بأنها منزلة من الله على أنبيائه، وأنها حق لا باطل فيها، وأنها يصدق بعضها بعضا، فمن تلك الكتب:

- **التوراة:** وهي كتاب موسى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

- **ومن تلك الكتب الإنجيل:** الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

- ومن هذه الكتب الزبور: الذي نزله الله تعالى على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- ومن الكتب صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام: كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٣٨].

ولكن هذه الكتب لم يتم حفظها، فاعتراها النسيان والتحريف، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

حفظُ اللهِ القُرآنَ دُونَ غَيرِهِ:

٦٤) حَفِظَ اللَّهُ القُرآنَ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقصِ وَالتَّحرِيفِ وَالتَّبدِيلِ، فَبَقِيَ كَمَا أَنزَلَهُ اللَّهُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، فَهُوَ كُلُّهُ حَقٌّ مِن عِندِ اللَّهِ، وَلَم يَحفَظ غَيرَهُ مِنَ الكُتُبِ فَدَخَلَت عَلَيهَا الزِّيَادَةُ وَالنُّقصُ وَالتَّحرِيفُ وَالتَّبدِيلُ فَفِيهَا حَقٌّ وَفِيهَا بَاطِلٌ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

الشرح:

ومن أعظم ذلك الإيمان بالقرآن.

ومن أركان الإيمان بالقرآن أن نؤمن بأن الله حفظ القرآن، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه لا يمكن أن يأتي فيه تحريف لا يتم اكتشافه، ولا يمكن إنقاصه.

ومن قال بأن هذا القرآن ناقص فهو مُكَذِّب لما في القرآن من وعد الله سبحانه بحفظ هذا القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

* * * * *

القُرآنُ هُوَ الهِدايَةُ العامَّةُ لِلبَشَرِ

وَظِيفَةُ القُرآنِ:

٦٥) نُؤمِنُ بِأَنَّ القُرآنَ العَظِيمَ أَنزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى هِدَايَةً عَامَّةً لِجَمِيعِ البَشَرِ لِمَا فِيهِ سَعَادَتُهُم الدُّنيَوِيَّةِ وَالأُخرَوِيَّةِ بِتَنوِيرِ العُقُولِ، وَتَزكِيَّةِ النُّفُوسِ، وَتَقوِيمِ الأَعمَالِ، وَإِصلَاحِ الأَحوَالِ، وَتَنظِيمِ الاجتِمَاعِ البَشَرِيِّ عَلَى أَكمَلِ نِظَامٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ فَهُوَ ضَالٌّ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَلِقَولِهِ فِي خُطبَتِهِ يومَ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: **(وَقَد تَرَكتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا بَعدَهُ إِن اعتَصَمتُم بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ)** رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

الشرح:

في هذا القرآن صلاح للناس أجمعين المؤمن والكافر، حتى أن الكافر عندما يستمع إليه يخاف من شره ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذا القرآن هداية لمن أراد أن يهتدي به ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. هو هداية لهم لكنهم لم يهتدوا به، فهم بمثابة المصباح الذي تركه صاحبه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٤).

ومن الإيمان بالقرآن: أن نؤمن أنه كلام الله حقيقة، وأن هذا هو عين كلام الله، وأن الذي نسمعه هو عين كلام الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

وفي القرآن نزلت آيات منها قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد أمر الله تعالى بتدبره، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

كما أمر أن تكون الدعوة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

وأمر أن تكون النذارة به، قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وأمرنا بالاستماع إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

واشتمل هذا القرآن على قصص الأنبياء السابقين، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد تحدى الله عز وجل جميع الخلق، وخصوصا العرب أهل الفصاحة أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

* * * * *

الإِيمَانُ بِالسُّنَّةِ إِيمَانٌ بِالقُرآنِ:

حُجِّيَّةُ السُّنَّةِ:

٦٦- وَمِنَ الإِيمَانِ بِكِتَابِ اللَّهِ أَن نُؤمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ حَقٌّ مِن عِندِ اللَّهِ، وَبَيَانٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَنَّ الأَخذَ بِهِ أَخذٌ بِالقُرآنِ، وَأَنَّ التَّركَ لَهُ تَركٌ لِلقُرآنِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ١١]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ولِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

الشرح:

ومما يدخل في الإيمان بالقرآن أن نؤمن أن سنة النبي ﷺ تفسر القرآن وتوضحه.

وأن نؤمن بأن رسول الله ﷺ قد تصدى لتفسير هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤]. وبذلك نؤمن بسنة النبي ﷺ وأنها حق نزلت بمعناها من عند الله أنزله إليه فنطيعه ﷺ، ونقدم طاعته على رغباتنا وأهوائنا، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وأنه يجب عند الاختلاف والتنازع الرجوع للكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، أي: عاقبة، والرد لله، الرد لكتابه، والرد للرسول ﷺ يكون بمقدار إيمانه، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور: ٤٧-٤٨]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

* * * * *

عَقَائِدُ الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-:

الرُّسُلُ:

٦٧) إنَّ الرَّبَّ الحَكِيمَ جَلَّ جَلَالُهُ خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ، وَفِي عِبَادَتِهِ كَمَالُنَا وَسَعَادَتُنَا، وَعِبَادَتُهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَنَا وَنَهَانَا وَأَبَاحَ لَنَا، وَلَا يُمكِنُنَا أَن نَعرِفَ ذَلِكَ إِلاَّ إِذَا بَيَّنَهُ لَنَا، فَاختَارَ مِنَّا -تَفَضُّلاً مِنهُ وَرَحمَةً- قَومًا فَطَرَهُم عَلَى الفَضَائِلِ وَالكَمَالَاتِ، وَعَصَمَهُم مِنَ الرَّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ وَهَيَّأَهُم لِمُلَاقَاةِ المَلَائِكَةِ الأَطهَارِ، لِيَتَلَقُّوا مِنهُم وَحيَ اللَّهِ وَبَيَانَهُ لِلعِبَادِ، فَيُبَلِّغُوهُ إِلَيهِم، وَيَكُونُوا قُدوَةً لَهُم فِي تَنفِيذِهِ وَالعَمَلِ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الأَنبِيَاءُ وَالمُرسَلُونَ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الَّذِينَ نُؤمِنُ بِهِم كُلِّهِم. مَن عَرَفنَا مِنهُم بِتَعرِيفِ اللَّهِ وَمَن لَم نَعرِف، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٥-٦]، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

الرُّسُلُ حُجَّةٌ:

٦٨- هُم حُجَّةُ اللَّهِ وَشُهُودُهُ، أَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِوَحيِهِ، وَأَرسَلَهُم لِتَبلِيغِهِ لِخَلقِهِ، لِيُعَرِّفُوهُم بِهِ وَبِشَرعِهِ، وَيُنَبِّهُوهُم إِلَى آيَاتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُم بِإِنعَامَاتِهِ، وَيُبَشِّرُوهُم بِالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ إِذَا اتَّبَعُوهُم، وَيُخَوِّفُوهُم مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالهَلَاكِ إِذَا خَالَفُوهُم، فَقَامَت بِهِم -لَمَّا بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ وَأَدَّوُا الأَمَانَةَ- حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى خَلقِهِ وَكَانُوا -وَهُمُ العُدُولُ الأُمَنَاءُ الصَّادِقُونَ- شُهَدَاءَهُ عَلَيهِم يَومَ لِقَائِهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١].

الشرح:

من أركان الإيمان: الإيمان برسل الله، فنؤمن أن لله رسلاً أرسلهم إلى الناس، وأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٤-٢٦]، وأن الله سبحانه قد اصطفاهم وأعطاهم من الخصائص ما ليس لغيرهم، وهم على أنواع:

منهم من سمى الله في كتابه وهم قَرَابة الخمسة والعشرين، ومنهم من عرفناه بصفته كما في أصحاب القرية أو في غيرهم، ومنهم من لم نعرفه بعينه، ومن ثَمَّ نؤمن بجميع أنبياء الله أنهم صادقون وأنهم قد أرسلهم الله سبحانه فلا يُكذَّب أحد من هؤلاء الرسل، ولا نفرق بالإيمان بين رسول ورسول، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، ومن كفر بواحد منهم كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه يكذب بقية الأنبياء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

وقد اختارهم الله لحمل رسالته، لما هم عليه من صفات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهؤلاء الرسل هم حجة الله، وهم الذين أنزل إليهم الوحي، وهم الذين يحصل بهم النجاة قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، يبشرون من أطاعهم بالخير والهدى والجنة، وينذر من عصاهم من نار جهنم، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤-١٦٥]. أي: أراد

الله سبحانه أن يقطع العُذر على العباد، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فالأنبياء يشهدون على أقوامهم.

وإرسال الرسل رحمة من رب العالمين، وإحسان منه سبحانه، تفضل به على العباد، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وليس الرسل على مرتبة واحدة؛ بل يتفاوتون في مراتبهم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وممن فضلهم الله أولي العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ومع تفاوت مراتبهم فإننا نؤمن بهم جميعا كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد أوجب الله تعالى طاعة الرسل كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ

لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وسنة الله في الكون أن ينصر رسله وأتباعهم رغم ما يلاقونه من استهزاء وتكذيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

* * * * *

تأييدُ اللهِ لَهُم بالبيِّناتِ والآياتِ:

مُعجِزاتُ الرُّسُلِ:

٦٩) لَمَّا أَرسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ لِهِدَايَةِ خَلقِهِ، وَإِقَامَةِ حُجَّتِهِ، أَيَّدَهُم بِالبَيِّنَاتِ، وَهِيَ كُلُّ مَا تَبَيَّنَ بِهِ الحَقُّ، مِن كَمَالِ سِيرَتِهِم فِي قَومِهِم، وَوُضُوحِ بَيَانِهِم. وَقُوَّةِ حُجَّتِهِم، وَأَيَّدَهُم بِالآيَاتِ المُعجِزَاتِ الخَارِقَةِ لِلعَادَةِ المَعجُوزِ عَن مُعَارَضَتِهَا، فَكَانُوا يَدعُونَ الخَلقَ بِالحِجَجِ وَالبَرَاهِينِ، فَإِذَا سَأَلُوهُم آيَةً رَدُّوا الأَمرَ إِلَى اللَّهِ وَتَبَرَّأُوا مِن أَن يَكُونَ لَهُم مَعَهُ تَصَرُّفٌ فِي الكَونِ حَتَّى يَأتُوا بِالآيَاتِ، فَيُعطِيهِمُ اللَّهُ الآيَاتِ تَأيِيدًا لَهُم، وَتَخوِيفًا لِقَومِهِم: فَيَخضَعَ قَومٌ فَيُؤمِنُونَ، وَيَستَمِرَّ الأَكثَرُونَ عَلَى العِنَادِ، فَتَحِقَّ عَلَيهِم كَلِمَةُ العَذَابِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ٩-١٢]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

الشرح:

الله سبحانه قد أَيَّد رسله بالآيات والبينات والعلامات الواضحات التي يؤمن عليها العباد، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ

....

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

ومن أمثلة ذلك: أعطى الله موسى تسع آيات، أما النبي ﷺ فقد أعطاه الله معجزات كثيرة أعظمها القرآن؛ ولذلك لا ينبغي أن نظن أن دليل صدق الرسل هو المعجزات فقط، بل الذي يدل على صدق الرسل أشياء كثيرة، المعجزات إحداها، ومن أدلة صحة الرسالة الخطاب البين المقنع الذي يكون مع الأنبياء، فإنه من الحجج التي تكون مع الأنبياء.

وهكذا أيضًا من شاهد وقائع الأنبياء وسنة الله معهم، إن الله ينصرهم ويُحيط بأعدائهم ويُنزِل بهم العقوبات، علم أنهم الصادقون.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي: بالأدلة الواضحة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي: ليوضح لهم الحق.

أما المعجزات فقد يُرسلها الله سبحانه لتخويف العباد ولإقامة الحجة عليهم، والغالب أن من جاءته المعجزات لم يؤمن وبقي على تكذيبه، وأن الله سبحانه أنزل بأولئك المكذبين العقوبات بعد ذلك، وسنة الله أنها إذا جاءت المعجزات مع نبي فلم يؤمن به قومه عُجِّل لهم العذاب.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

* * * * *

تمامُ عُبُودِيَّتِهِم مَعَ عُلُوِّ مَرتَبَتِهِم:

٧٠) هُم -عَلَيهِم الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- عَلَى عُلُوِّ مَنزِلَتِهِم لاَ يَمتَازُونَ عَنِ الخَلقِ فِي تَمَامِ عُبُودِيَّتِهِم، بِافتِقَارِهِم إِلَى اللَّهِ، وَجَرَيَانِ قَدَرِهِ عَلَيهِم وَعَدَمِ مُلكِهِم شَيئًا مَعَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مُلكِهِ، وَعَدَمِ عِلمِهِمُ الغَيبَ إِلاَّ مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ، وَجَرَيَانِ شَرعِهِ عَلَيهِم وَقِيَامِهِم بِمَا كُلِّفُوا بِهِ خَاضِعِينَ لِلَّهِ رَاجِينَ خَائِفِينَ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

الشرح:

الأنبياء هم أفضل بني آدم، وهم أعلى الناس منزلة عند رب العزة والجلال، لكنهم لا يعلمون شيئًا من الغيب، إذا كان محمدًا ﷺ لا يعلم الغيب فهكذا بقية الأنبياء، فهم لا يجوز أن نغلو فيهم، أو نصرف لهم شيئًا من العبادات التي تكون لله سبحانه، أو نعتقد أنهم يتصرفون في الكون، فإن هذا من الشرك، وكذلك لا نعتقد أنه يجوز صرف شيء من العبادات لهؤلاء الأنبياء بل هم عباد لله، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. يعني: محمدًا ﷺ. وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]. ولذلك يعترف الأنبياء بأنهم فقراء إلى الله وأنهم محتاجون إليه.

ولذا كان من الدعاء: **(اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ بنُ عَبدِكَ بنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عَدلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ)**[١].

وسيد الاستغفار: **(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك** -أي: أعترف- **بنعمتك علي، وأبوء بذنبي)**[٢].

وقال النبي ﷺ: **(قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك)**[٣]، وكان من دعائه ﷺ: **(اللهم أنت الملك لا إله إلا انت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)**[٤].

وانظر إلى موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وانظر على لسان محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، كأنه قال: وظيفتي.. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

---

(١) ضعيف، أخرجه أحمد (٤٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، والترمذي (٣٣٩٣)، والنسائي (٥٥٢٢)، وأحمد (١٧١١١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٥٨)، والنسائي (١٢٩٣)، وابن ماجه (٩٠٣)، وأحمد (١١٤٣٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٢)، والترمذي (٣٤٢١)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد (٧٢٩).

وهؤلاء الرسل يدعون إلى عبادة الله لا إلى عبادة أنفسهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥-٧٦].

ولذا فإن الأنبياء يتعبون، وينامون؛ بل ويموتون، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والله سبحانه قد جعل هؤلاء الأنبياء على أجمل الهدي وأمر باتباعهم، وبيَّن أن الأنبياء لا يُخالفون ما يأتون به من التوحيد.

قال تعالى عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. إذن هم لم يخرجوا عن شريعة الله، بل الأمر والنهي يشمل أنبياء الله، ومن هنا لا يوجد أحد يخرج عن الشريعة.

وإذا جاءك إنسان وقال: أنا وصلت إلى رُتبة ارتفعت عني التكاليف؛ بحيث لا يصل إليَّ الأمر الإلهي والنهي، فهذا ضال، ومُخالف لطريقة الأنبياء.

ومن هنا؛ فهؤلاء الأنبياء لا يجوز أن ندعوهم من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾. يعني: أن هؤلاء المشركين كانوا يدعون الأنبياء والصالحين.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾. فلماذا لا تبتغون أنتم إلى ربكم الوسيلة مباشرة.. ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧]. هؤلاء الذي تدعون يرجون رحمة الله ويخافون عذاب الله، وبالتالي لماذا أنتم لا تفعلون مثل فعلهم؟ ولماذا تتوجهون بعبادتكم إليهم؟!

ولذلك نحن نتأدب مع أنبياء الله، ولو وقع منهم شيء من المخالفة فإنهم يُوفقهم الله للتوبة، وإنما أراد الله سبحانه أن يُعلم العباد كيف يتعاملون مع مثل ما عوتبوا به، كمثل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]. ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فإن هذه أمور عاتبه الله عليها ليستغفر ويتوب فترتفع درجته لأن التوبة والاستغفار مرتبة عظيمة ولا ينقص هذا من مكانته.

وسَبُّ الأنبياء من أشنع الجرائم، ومؤذن بالعقوبات الدنيوية والأخروية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وواجبنا البعد عن أولئك المستهزئين وعدم الاستماع إليهم وعدم اتخاذهم أصحابًا وأولياء.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]. ونعلم أن الله سبحانه سيكفينا شرهم.. ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. وأن العقوبة ستنزل بهم، ولذلك لا نُقِرُّهم على أفعالهم.

ويوم القيامة يندم أولئك الذين قابلوا دعوة الأنبياء بالتكذيب والاستهزاء، قال تعالى عن ذلك اليوم: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٧].

* * * * *

تَأَدُّبُنا مَعَهُم فِيمَا عُوتِبُوا عَلَيهِ وَاستَغفَرُوا مِنهُ:

٧١) هُم عِبَادُ اللَّهِ يُخَاطِبُهُم بِمَا شَاءَ، وَيُعَاتِبُهُم بِمَا أَرَادَ، فَيَعتَرِفُونَ وَيَستَغفِرُونَ، وَلَيسَ لَنَا فِيمَا عُوتِبُوا عَلَيهِ وَاستَغفَرُوا مِنهُ إِلاَّ حِكَايَةَ لَفظِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَعَ اعتِقَادِ احتِرَامِهِم وَإِكبَارِهِم، وَأَنَّ اللَّهَ يُعَاتِبُهُم عَلَى قَدرِ عُلُوِّ مَنزِلَتِهِم. وَأَنَّهُم لِكَمَالِ مَعرِفَتِهِم بِرَبِّهِم وَعَظِيمِ حَقِّهِ عَلَيهِم يَرَونَ مَا لاَ يُعَدُّ تَقصِيرًا بِالنِّسبَةِ لِغَيرِهِم تَقصِيرًا بِالنِّسبَةِ لَهُم؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

خَتمُ الرِّسَالَةِ وَعُمُومُهَا:

الرِّسَالَةُ المُحَمَّدِيَّةُ:

٧٢) خَتَمَ اللَّهُ الرِّسَالَةَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَجَعَلَ رِسَالَتَهُ الرِّسَالَةَ العَامَّةَ لِلجِنِّ وَالإِنسِ وَالمَلاَئِكَةِ، وَجَعَلَ شَرِيعَتَهُ الشَّرِيعَةَ الجَامِعَةَ لِمَا يَحتَاجُ إِلَيهِ البَشَرُ فِيمَا بَقِيَ آخِرُ أَطوَارِهِم فِي وُجُودِهِم، وَهُوَ طَورُ رُقِيِّهِم العَقلِيِّ وَالعَمَلِيِّ وَالعِمرَانِيِّ، فَأَغنَت عَمَّا قَبلَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ فَكَانَت نَاسِخَةً لَهَا، وَلِهَذَا جَعَلَ آيَتَهُ القُرآنَ العَظِيمَ آيَةً عَقلِيَّةً خَالِدَةً، يَخضَعُ لَهَا وَيَهتَدِي بِهَا كُلُّ مَن سَمِعَهَا وَفَهِمَهَا؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(مَا مِنَ الأَنبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعطِيَ مَا مِثلُهُ آمَنَ عَلَيهِ البَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي**

أوتيتُ وَحيًا أوحاهُ اللّهُ إليَّ فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابعًا يومَ القِيامَةِ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ(١).

الشرح:

من أركان دين الإسلام، الإيمان بأن محمدا رسول من عند الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥].

ومن ذلك الإيمان بأنه آخر الرسل والأنبياء، كما قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وجعل رسالته عامة لجميع الثقلين، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

فرسالة محمد ﷺ تشمل الإنس وتشمل الجن، وهذه الرسالة عامة للثقلين حتى أولئك الجن الذين يستخدمهم السحرة تشملهم رسالة محمد ﷺ، ويجب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

عليهم أن يؤمنوا بها، وأن يطيعوا الأوامر الإلهية فيها، وأن يحذروا من إيذاء عباد الله باتباع هؤلاء السحرة.

لقد تفضل الله على البشرية ببعثة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة: ١٢٨].

وشريعة محمد ﷺ كاملة؛ لأنها نزلت بقواعد عامة تشمل جميع الوقائع إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩]. ومن هنا مهما اختلفت أحوال الناس فإنه لابد لكل فعل من أفعالهم حكم شرعي.

هذه الشريعة من خصائصها أنها ناسخة لشرائع الكتب السابقة عليها، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة:٤٨]. ومن هنا هذه الشريعة محفوظة باقية لا يمكن أن تضمحل، هذه الشريعة يُنصَر أصحابها مهما حاول من حاول طمس معالمها.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٨-٩].

قد يقول قائل: نجد أن المسلمين لم يظهروا ولم ينتصروا؟ نقول: لم يعملوا بدين الله فعوقبوا وتخلف النصر، أو أن الله أخر النصر عنهم لحكمة يراها من أجل

....

أن يمحصهم وأن يعظم أجرهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

الأدلة الدالة على صحة الرسالة كثيرة، فمنها: هذا القرآن الذي اشتمل على الأدلة العقلية المقنعة، واشتمل على حقائق علمية لم تكن معروفة في زمن نزوله، واشتمل على أخبار ماضية كلها صدق، وجاءت النصوص دالة على عموم الشريعة، فتشمل الجن والإنس، كل من سمع بهذه الشريعة فهو مخاطب بها، قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وهذه الشريعة تكفينا لا نحتاج إلى مصادر أخرى نأخذ منها الأحكام الشرعية، لا من العقول، ولا من التنظيمات، ولا من المنامات والرُّؤى، ولا من الإلهام والكشف، ولا من كتب الأمم السابقة، ولا من الحاضرة اللاحقة، بل يكفينا القرآن.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]. شريعة، أليس هذا الدين شريعة؟ الشريعة في اللغة مورد الماء الكبير الذي يرده كل أحد؛ ولذلك فإن هذه الشريعة عظيمة، كل أحد يرد منها ويجد ما يحتاج إليه فيها.

قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **(مَا مِن الأَنبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعطِيَ مَا مِثلُهُ آمَنَ عَلَيهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحيًا أَوحَاهُ اللَّهُ**

إِلَـيَّ -وهـو القـرآن الكـريم- ، فَـأَرجُو أَن أَكُـونَ أَكثَـرَهُم تَابِعًـا يَـومَ القِيَامَـةِ)[(١)].
لأنها حجج مقنعة.

وقد أوجب الله علينا الإيمان برسالته، وتصديق أخباره، ورتب على ذلك الأجور العظيمة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي الاستجابة له تحصيل الحياة الفاضلة الكاملة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومن ثم فإن من مقتضى كون محمد رسول الله أن يطاع فيما يأمر به، وأن يجتنب ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، ورتب على طاعته الخيرات العظيمة، ووصفه بالإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

(١) أخرجه البخاري ((٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢).

....

وجعل طاعته طاعة لله تعالى فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، وحذر من تكذيبه، أو محادته، أو إيذائه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [المجادلة: ٥]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٢].

* * * * *

عَقَائِدُ الإِيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ

انتِهَاءُ الوُجُودِ الدُّنيَوِيِّ وَحُدُوثُ الوُجُودِ الأُخرَوِيِّ:

٧٣) نُؤمِنُ بِانتِهَاءِ وُجُودِ هَذَا العَالَمِ الدُّنيَوِيِّ، عِندَ انتِهَاءِ أَجَلِ وُجُودِهِ فِي عِلمِ اللَّهِ: فَينحَلُّ نِظَامَ هَذَا الكَونِ، فَيَخرَبُ الكَونُ العُلوِيُّ، كَمَا يَخرَبُ الكَونُ السُّفلِيُّ، لِيَكُونَ وُجُودَ العَالَمِ الأُخرَوِيِّ فِي كَونٍ آخَرَ، وَنِظَامٍ آخَرَ، إِذِ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلقِهِ وَنِظَامِهِ، قَادِرٌ عَلَى إِعدَامِهِ وَإِبطَالِ نِظَامِهِ، وَعَلَى خَلقِ مِثلِهِ وَنِظَامِهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار: ١-٥]، ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ [المرسلات: ٨-١٠]، ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٤-٦]، ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الشرح:

من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الإسراء: ١٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤].

من الفوارق بين أهل السنة والجماعة وغيرهم من الفرق، وبين المسلمين وغيرهم: ترسيخ عقيدة الإيمان باليوم الآخر، ومن كان في تعليمه ووعظه لا يتكلم إلا بالدنيا والمصلحة الدنيوية، ولا يذكر الناس بالآخرة، فإنه لم يلفت الأذهان إلى النهاية الحقيقية، ولم يكن متوافقا مع مدلول النصوص التي تأمر المؤمن بان يكون مستعدا للآخرة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩]، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ومتى آمن الناس بالآخرة، وكانت أعمالهم من أجلها انتفعوا بالمواعظ، واستجابوا لها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ولذا كان الداعية الحق الواعظ الناصح من خوفك من الآخرة وذكرك بالآخرة وعرفك أن الدنيا قصيرة، وأن الآخرة تمتد أبد الآباد، ؛ لأننا نؤمن بأننا عما قريب سننتقل إلى الدار الآخرة، وبالتالي سنحاسب على أعمالنا، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا

لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

والمذموم هو اقتصار هدف الإنسان على أمور الدنيا، وغفلته عن الآخرة، وأعظم منه أن يقصد بدين الله الدنيا، دون الآخرة، قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣]، وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٠-٢٥]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أما من عمل في الدنيا، ولم ينس آخرته فإنه لا يذم، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

وأحسن من ذلك أن يؤدي الأعمال الدنيوية بمقاصد أخروية، ومن كان كذلك، فإن الله يتفضل عليه بأن يجعل له العاقبة الحميدة، في الدنيا، مع ما ينتظره من الثواب الجزيل في الآخرة، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

ولا شك أن ثواب الآخرة هو الأعظم والأفضل، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، والخلاصة تجدها في قوله سبحانه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[هود: ١٠٣-١٠٤]. وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾. متى وقتها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا﴾.لا يؤخرها ولا يقدمها ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد ذكر الله سبحانه شيئًا من الحوادث التي تقع يوم القيامة في قوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أي: انشقت.

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تفرقت وتساقطت.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، أي: أصبحت محلا للتفجيرات.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قلب ترابها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٥]. تذكر الإنسان أعماله.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾: ذهب ضوؤها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾: انشقت.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾[المرسلات: ٨-١٠] أي: قلعت من أمكنتها وفُرِّقت وفُتِّتَتْ.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾: زُلزلت زلزالا شديدا.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾: فُتِّتَتْ

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤-٦]. ليس فيها شيء.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، أي: تجعل على غير صفتها المألوفة.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١-٨٢].

فمن خلق السماوات بما فيها من الكواكب السيارة والنجوم والشموس، والعوالم العظيمة التي الأرض كالنقطة فيها، ومن خلق هذه الأرض بما فيها من البحار والجبال والأودية والصحاري والسهول، وما فيها من أشجار وحيوانات وجمادات، فإنه قادر على إعادة خلق الإنسان، فإنه سبحانه العظيم، قدرته إذا أمر بشيء مرة واحدة وقع ما أمر به، فلا يحتاج إلى تكرار او تأكيد أو تهديد، وإنما يقول له كن فيكون سبحانه وتعالى.

* * * * *

الْمَعَادُ وَالبَعثُ:

البَعثُ:

٧٤) نُؤمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحيينَا بَعدَ المَوتِ، وَيُعِيدُنَا بِأَروَاحِنَا وَأَجسَادِنَا فَيَبعَثُنَا مِن قُبُورِنَا وَمِن حَيثُ كُنَّا، إِلَى المَوقِفِ الأَعظَمِ، لِلمُحَاسَبَةِ عَلَى الأَعمَالِ وَالجَزَاءِ عَلَيهَا، إِذ ذَاكَ جَائِزٌ فِي قُدرَتِهِ، وَوَاجِبٌ فِي عَدلِهِ وَحِكمَتِهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥]، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]، ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ [القمر: ٧]، ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٤-٦]، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

الشرح:

نؤمن بأن الله سبحانه يجازي العباد في قبورهم، وأن القبر حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ

سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]، فسوء العذاب في القبر، وأشد العذاب في يوم المعاد.

وقد يقول قائل: عندنا رجلان واحد مؤمن موحد مطيع وقُبر بجانبه عاصٍ، فكيف يكون بينهما سنتيمترات قليلات ويكون بينهما هذا البون الشاسع في العذاب والنعيم؟

نقول: هل الله يعجز عن ذلك؟! هو الله، انظر إلى اثنين في المنام ينامون في فراش واحد -زوج وزوجته- أحدهما يحلم أحلامًا سعيدة ينعم بها، والآخر لديه كوابيس مؤلمة محرقة وليس بينهما شيء، بل بدن أحدهما على بدن الآخر.

وهكذا أيضًا نؤمن بما ذكره النبي ﷺ مما سيحدث في عرصات القيامة، فنؤمن بأن الله يبعثنا من قبورنا، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩-١٠] أي: أخرج ما فيها من الأموات، ومن مات في البحر أو في البر أو أكلته السباع، فإن الله يجمع بدنه بقدرته، ويبعثه بعد مماته، وهو على كل شيء قدير.

ونؤمن أنه سبحانه سيحاسبنا على أعمالنا وسيجازينا عليها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ونؤمن بأن الله سيحيينا بعد موتنا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال -جل وعلا-: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. تجتمع الناس أممًا. ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾. قيل: مجتمعة، وقيل: باركة، جالسة على الأرض. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: صحائف أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]. أي: يقال لهم: هذا يوم الجزاء، يجازي كل إنسان على وفق أعماله.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي: أن هذا الكتاب يذكركم بأعمالكم، قيل بأن المراد بالنطق هو حقيقة النطق وهو الأظهر، وقيل بأنه مكتوب فيه فبالتالي يُقرأ، والصواب هو الأول؛ لأن الله قادر على ذلك، فلا حد لقدرته سبحانه، ولا ينتهي مجالها، وفي أزماننا هذه وجدنا هذه الأجهزة تتكلم ويظهر منها الصوت ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. أي: نكتب ونسجل جميع أعمالكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾؛ انظروا إلى خِلقتكم الأولى. ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، فمن قدر على خلقكم أول مرة، قادر على إعادتكم.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦-٧]؛ لأن جَعْلَ الناس يعملون في الدنيا فيحسن بعضهم إلى بعض، ويسيء آخرون، في الدنيا بدون حساب على أعمالهم هذا عبث لا يتناسب معم العدل والحكمة، والله سبحانه مُنَزه عن العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. أي: ترفع وتنزه عن العبث، فقد أوجب على نفسه مجازاة أهل الخير والإحسان بمثل أعمالهم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

* * * * *

وَزنُ الأعمَالِ وَالجزاءُ عَليهَا:

الميزَانُ:

٧٥) نُؤمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنصِبُ المِيزَانَ يومَ القِيَامَةِ، فَتُوزَنُ أَعمَالُ العِبَادِ لِيُجَازُوا عَلَيهَا، وَيُقتَصُّ مِن بَعضِهِم البَعضُ، فَمَن رَجَحَت حَسَنَاتُهُ نَجَا، وَمَن رَجَحَت سَيِّئَاتُهُ عُذِّبَ، إذ ذَاكَ وَاجِبٌ فِي عَدلِ اللَّهِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(أَتَدرُونَ مَا المُفلِسُ؟)** قَالُوا: المُفلِسُ فِينَا مَن لاَ دِرهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: **(إِنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتِي مَن يَأتِي يَومَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ... وَيَأتِي وَقَد شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعطَى هَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، فَإِن فَنِيَت حَسَنَاتُهُ قَبلَ أَن يُقضَى مَا عَلَيهِ أُخِذَ مِن خَطَايَاهُم فَطُرِحَت عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)** رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

الشرح:

ورد في النصوص أن الموازين توضع يوم القيامة، ويوزن في الموازين ثلاثة أشياء: أبدان بني آدم، كما قال النبي ﷺ: **(تعجبون من دقة سيقان ابن مسعود**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٨٠٢٩).

فإنهما في الميزان أثقل من كذا وكذا)(١). فهذا وزن البدن.

والوزن يكون أيضًا للأعمال والأقوال، كما قال النبي ﷺ: **(كلمتان ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)**(٢)، وقوله ﷺ: **(والحمد لله تملأ الميزان)**(٣).

ويكون أيضًا الميزان للصحائف التي تُسجل فيها الأعمال، كما في حديث البطاقة عندما يأتي الإنسان بتسعة وتسعين سجلاً من ذنوبه، **(فيقال له: ألك عذر؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، فتخرج بطاقة فيها الشهادتان، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)**(٤).

وقد ذكر الوزن في عدد من آيات الكتاب الحكيم، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١]، وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) حسن، أخرجه أحمد (٢٤٣) من حديث علي رضي الله عنه، كما أخرجه أحمد (٣٩٩١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كما أخرجه الحاكم (٣/٣١٧)، من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥٠٧)، والنسائي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد (٢٢٩٠٢).

(٤) حسن، أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤)، وابن حبان (٢٢٥).

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

أيضًا في الميزان من رجحت حسناته نجا، ومن رجحت سيئاته عُذِّب إلا أن يعفو الله عنه، قال تعالى: **﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾** [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾. أي: العادلة. **﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾**. أي: الشيء القليل اليسير. **﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾**، أي: أحصرناها يوم القيامة **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾** [الزلزلة: ٧-٨].

قال تعالى مُبينًا حجة عقلية على إثبات المعاد: **﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾**. لا والله، هذا ليس من العدل في شيء، **﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** [الجاثية: ٢١]. عندما ظنوا أن الله ظالم، ولذا قال تعالى: **﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** [الجاثية: ٢٢].

وعد النبي ﷺ المفلس من يأتي يوم القيامة معه صلاة وصيام وصدقة ويأتي وقد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، حتى إذا لم يبق من حسناته شيء أخذ من سيئاتهم فَطُرِحَت عليه فطُرِحَ في النار.

والدليل على أن الله قد يغفر لأصحاب الذنوب والكبائر، قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾** [النساء: ١١٦].

*****

الصِّرَاطُ:

٧٦) وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ يَضرِبُ الصِّرَاطَ عَلَى ظَهرِ جَهَنَّمَ فَيَمُرُّ عَلَيهِ النَّاسُ أَجمَعُونَ فَيَنتَهِي أَهلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ وَيَسقُطُ مِنهُ فِي النَّارِ أَهلُ النَّارِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

الشرح:

كذلك نؤمن بأن الصراط يُضرب على جسر جهنم، وأن الله سبحانه يجعل الكفار يسقطون في النار، وأما المؤمنون المتقون فإن الله سبحانه ينجيهم من على الصراط، قال تعالى: **﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾** [مريم: ٧١-٧٢].

وفي الحديث قال ﷺ: **(يضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجوزه)**[١]، وقال ﷺ: **(يوضع الصراط بين ظهري جهنم عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مسلم، ومجروح به، ومنكوس فيها)**[٢].

ثم بعد ذلك ينجو أهل الجنة، ويتساقط غيرهم في النار، قال تعالى: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾** [النساء: ٥٦-٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (٢٩٩).

(٢) حسن، أخرجه أحمد (١١٠٨١).

دارُ العَذَاب:

٧٧- وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ النَّارَ دَارَ عَذَابٍ وَخُلُودٍ لِمَن كَفَرَ، وَدَارَ عَذَابٍ إِلَى أَجَلٍ لِمَن رَجَحَت سَيِّئَاتُهُم عَلَى حَسَنَاتِهِم فَاستَحَقُّوا العَذَابَ، وَأَنَّ العَذَابَ فِيهَا لِلأَروَاحِ وَالأَجسَادِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧]، وَلِحَدِيثِ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(يَخرُجُ مِن النَّارِ مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلبِهِ مِن الخَيرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخرُجُ مِن النَّارِ مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلبِهِ مِن الخَيرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخرُجُ مِن النَّارِ مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلبِهِ مِن الخَيرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً)** رَوَاهُ مُسلِمٌ[1]، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]أ.هـ.

دارُ النَّعيم:

٧٨- نُؤمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الجَنَّةَ دَارَ نَعِيمٍ وخُلُودٍ لِلمُؤمِنِينَ وَأَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ، وَأَنَّ النَّعِيمَ فِيهَا لِلأَروَاحِ وَالأَجسَادِ، وَأَنَّ أَعظَمَ نَعِيمِهَا هُوَ رِضوَانُ اللَّهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]، وَلِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] اهـ.

سُبحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى المُرسَلِينَ، وَالحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرا إِلَى يَومِ الدِّينِ.

الشرح:

كذلك نؤمن بالجنة والنار، فالجنة دار النعيم، تكن لأهل الإيمان، والنار دار العذاب، تكون لأهل الكفر والنفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٨].

يقول النبي ﷺ: **(يَخرُجُ مِن النَّارِ مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وكَانَ فِي قَلبِهِ مِن الخَيرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً...)**(١). الحديث.

هكذا أيضًا نؤمن أن العذاب في الآخرة يقع على الأبدان والأرواح، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فالجنة الآن موجودة، والنار الآن موجودة؛ لأن النبي ﷺ قد أخبر أنها خُلقت، وأخبر أنه دخلها(٢)، فهي موجودة الآن، والنار والجنة تبقى أبد الآباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وقال عن النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ (أبدا). في ثلاثة مواضع: في آخر سورة النساء، وآخر الأحزاب، وآخر الجن؛ ولذلك نؤمن بأن النار باقية أبد الآباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٣-٢٤].

ونؤمن أن الله سبحانه لا يخلد مؤمنًا في النار، لكنه بفضل الله ورحمته ليس بعملٍ مُجرد، عمل العبد سبب، وقد قال الله سبحانه: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، أي: بسبب عمله الذي يرحمه الله به، وقال النبي ﷺ: **(لن يدخل الجنة أحدا عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة)**(١).

إذن معنى الأولى أنه دخل الجنة برحمة الله، ومعنى الحديث أنه لم يدخل الجنة بعمله، من باب المقابلة والمجازاة.

إذن نحن نقول: أعمال بني آدم الطيبة الحسنة سبب من أسباب إدخال الله للعبد في الجنة، ولكن ليس على جهة المجـازاة والمقابلة؛ لأن الله سبحانه أنعم على العبد

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٧)، وأخرجه مسلم (٢٨١٨).

بنعم كثيرة أكثر من أعمالك، وفي المقابل يعذب الله سبحانه الكفار بأعمالهم عدلًا جزاءً.

وقد حرم الله على الكفار نعيم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومن أعظم نعم الله على أهل الجنة أن يحل عليهم رضوانه، كما ورد في الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: **(إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وتَعالَى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهْلَ الجَنَّةِ؟ فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ، فيَقولُ: هلْ رَضِيتُمْ؟ فيَقولونَ: وما لنا لا نَرْضَى وقدْ أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِكَ، فيَقولُ: أنا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ، قالوا: يا رَبِّ، وأَيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيَقولُ: أُحِلُّ علَيْكُم رِضْوانِي، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا)**[1].

ويتفضل رب العزة والجلال بأن يمكن أهل الجنة من رؤيته سبحانه، فيكون ذلك أحب شيء إليهم كما قال النبي ﷺ: **(إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدُكُمْ؟ فيَقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ)**[2].

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد (١٨٩٣٥).

وبهذا نكون قد انتهينا من كتاب "**العقائد الإسلامية**" للشيخ عبد الحميد بن باديس -غفر الله له-، نسأل الله -جل وعلا- أن يوفقنا وإياكم لخيري الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين، كما نسأله سبحانه أن يرفع درجاتكم وأن يُعلي منازلكم وأن يتقبل منكم وأن يعطينا جميعًا العقيدة الصالحة الصافية.

هذا ؛ والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * * * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة